« معالم الإسلام »
دراسة تحليلية لفصول الكتاب
(بقلم الدكتور محمد رجب البيومى)

- ١ -

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد عن الأستاذ محمد فريد وجدى [١] :

« هو فريد عصره غير مدافع ، وتلك كلمة مألوفة طالت ألفتها حتى رثّت وبليت ، وأصبحت حروفاً بغير معنى ، ولطالما قيلتْ عن عشرات من حملة الأقلام فى عصر واحد ، كلهم فريد عصره ، وكلهم واحدٌ من جماعة تعدّ بالعشرات ، فلا معنى لها في باب العدد ، ولا فى باب الصّفات ، ولاسيما صفات الرّجحان والامتياز ، إلا أنّنا نقولها اليوم عن فريد وجدى لنعيد إليها معناها الذى يصدق على الصفة حرفا حرفا ، ولا ينحرف عنها كثيرا ولا قليلا ، حتى فى لغة المجاز .

فقد عرفنا فى عصره طائفةً غير قليلة من حملة الأقلام ، ورجال الحياة العامّة ، فلم نعرفْ أحداً منهم يماثله في طابعه الذى تفرّد به فى حياته الخاصّة والعامة ، وفى خُلُقه أو تفكيره ، وفى معيشته اليوميّة أو معيشته الروحية . وأوجزُ ما يقال عنه فى هذه الحالات جميعها أنّه لم يُخلق فى عصره مَن يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود فى سيرته ، كما يتقاربان فى سيرة هذا الرجل الفريد ! نعم الفريدُ حتّى فى لغة الجناس ، لأن اسمه فريد ، والفريد حتى فى عزلته ، لأنّه كان فى عُزلة النسّاك والرهبان ، عليماً غاية العلم بالتحليل والتحريم » .

ثم قال الأستاذ العقاد فى ختام حديثه :

« رحم الله ذلك القلب الطهور ، وذلك الروح الكريم ، وذلك الخُلق الفريد ، إن يكن اليوم لا يُذكر حقَّ ذكراه فما هو بالقُصور ولا بالخمول ، ولكنَّه يعيش فى عزلةٍ من دُنيا التاريخ ، كما عاش أيّامَهُ فى عزلةٍ من دُنيا الحياة » .

---

(١) رجال عرفتهم – للأستاذ العقاد ص ١٤٧ – المكتبة العصرية بيروت .

ومن يعرف طابع العقاد فى الكتابة عن المعاصرين ، يدركُ كم كانَ الكاتب الكبير يمتلىء شعورا بعظمةِ الأستاذ محمد فريد وجدى ، إذ أنّ العقاد حين يتحدثُ عن عالم من علماء الفكر ممن شهدهم فى زَمنه . يضيفُ إلى مآثره ما يراهُ من نقداتٍ علمية أو خلقية تتعلقُ به ، وهو فى ذلك يرعى حق التاريخ من ناحية ، ويعرفُ أنّ كلامه يوزن وزنا بالقسطاس المستقيم فلا يحيلُ به إلى الزيادة أو النقصان ، وحين كتبَ عن الأستاذ وجدى بهرهُ أنّه لم يجدْ فى عصرِه من يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود فى سيرته كما يتقاربان فى سيرة الرجل الفريد ، كما صعب على العقاد أن يذكُر الناس من أهل الفكر مَنْ لم يبلغوا معشار ما بلغه الأستاذ وجدى فى عالم المعرفة الأصيلة ، ثم يعيشُ في عزلةٍ من دنيا التاريخ كما عاشَ أيامه فى عزلة الحياة ! وهى عجيبةٌ حقّا ، ولكنّ تعليلها قريبٌ ملحوظ ، فصاحب القمم الرفيعة فى سلوكه العملى ونتاجه العلمى مهيبٌ مخوف ممّن يحاول دراسته على وجهها الصحيح ، فالناس مع تقديرهم إيّاه ، يرؤن ما فى نفوسهم نحوَه أقلّ مما يستطيعون الحديث عنه من ميادينه المتّسعة . فيرجئون الحديث عنه حتى يستطيعوا استيعابَ ما يريدون ، وتمرّ الأيام وراء الأيام ، وهم لا يجدون في طوقهم ما يأملون ، فيتركون القمة العالية إلى ما دونَها ، وذلك خطأٌ واضح ، إذ على كلِّ مخلصٍ للحقيقة أن يُسعف التاريخ العلمى بما يقدِر عليه من الثمار ، ولا يشينه فى شيء أن يقتصر على نَاحية دون ناحية ، لأن حديثه المحدود سيجد من يجعله نقطةَ بدءٍ ينطلق منها إلى حلقة جديدة ، وبذلك تتمّ السلسلة الممتدة على أيدى أفراد لا على يد فرد واحد .

ولكنْى نُلم ببعض حلقات هذا الرجل الكبير نذكر أنّه كان المدافع الأول عن حوزة الإسلام فى ميدان الفكر المعاصر بأقْوى ما يملكه الباحث من سلاح ، لأنّ القدرَ قد وجهه منذ نشأته وقبل أن يبلغ العشرين من عمره إلى ريادة هذا الميدان متّخذاً عدّته من ثقافة الماضى والحاضر معا ، ثقافةِ الماضى فى كتب التراث الإسلامى على مدّ القرون المتطاولة منذ ظهر التأليف العلمى بين الناس ، وثقافة الحاضر فيما حملته الأفكار الأوربّية من نظرياتٍ علمية وأصول فكرية ، تتلاقَى وتختلف ، وتتعارض وتتماثل ، وهى فى كلّ ذلك تؤثر الهجومَ على تراث الإسلام ، جاهلةً حقيقته تارةً ،

ومتجنيةٌ عليه عن معرفة بحقيقته تارة أخرى ، ونحن نعلم أن الأستاذ الإمام محمد عبده رضى الله عنه كان الفارس الأول فى هذا المجال ، إذ تصدَّى لشكوكِ المفترين بأفكارهم من دهاقين الغرْب ، تصدِّىَ من يقرع الحجة بالحجة ويصد الدليل بالدليل ، ثم لقىَ الإمام ربّه ليخلفه أناسٌ يسيرون على دربه مُقاربين أو مُباعدين ، وفى طليعتهم الأستاذ محمد فريد وجدى ، ومن المدهش أن يكتب كثيرٌ من الباحثين عَنْ مدرسة الإمام فيذكرون كثيراً من الأسماء صادقين . ولكنّهم يتركون الاسم الأول الذى يجب أن يذكر عن حقٍّ واثق لا يتطّرق إليه الريب . وهو اسم الكاتب الكبير الأستاذ محمد فريد وجدى . ولكى أمحو من ذهن القارئ كل بادرة للشّك فيما أقول ، أذكُر أنّ تلميذَ الإمام الأول صاحب المنار ، ومؤرّخ حياته ، ومُسجّل دروسه وطابع كتبه وناشر أفكاره السيد محمد رشيد رضا ، قد تحدّث عن الأستاذ محمد فريد وجدى وهو شابٌّ لم يبلغ الثلاثينَ مُقارناً بالأستاذ الإمام وهو فى أوج قمّته وتألق مجده ، فَوازَنَ بيْن كتاب (رسالة التوحيد) للأستاذ الإمام ، وكتاب « المدنية والإسلام » للأستاذ محمد فريد وجدى قائلا [1] :

كَفى هذا الكتاب شرفاً أنّنا جعلناه ثانى كتاب رسالة التوحيد ، التّى لم يُؤَلَّفْ قبلها فى الإسلام قط ، ولعَمرى أن مؤلّفه الفاضل – يريدُ الأستاذ وجدى – جَرى على آثار الأستاذ فى الرسالة أسلوباً وبحثاً ، ولا يعيبه أنّه لم يبلغ شأوه بلاغةً وتحقيقا وتحريرا ، فالأستاذُ حكيم الأمة فى هذا العصر ، وأبلغ كتّاب العرب أجمعين ، على أنّ فى الكتابِ من الفوائد الكثيرة ، ما لَيْسَ فى الرسالة ، كما أنّ فيها ما ليسَ فيه ، فلا يستغنَى بأحدهما عن الآخر ، ومما يمتاز به الكتابُ سهولة التناول ، فيتسنّى لجميع طبقات الناس فهمه » .

ولقد انتقل الأستاذ الإمام إلى رحمة الله بعد صدور هذا المقال بستّ سنوات ، إذ لقى ربه فى سنة ١٩٠٥ ، وحاول تلاميذه المخلصون أن يقتفوا أثره فى إيضاح محاسن الإسلام ، وردّ شبهات المناوئين ، وكان فريد وجدى فارسَ الحلبة الأول . لأنّ كثيرا من تلاميذ الإمام قد اقتصروا على كتب التراث وحدها ، ولم يُتح لهم

---

(١) مجلة المنار – السنة الثالثة ١٩ / ٤ / ١٨٩٩ .

أن يقرءوا شبهاتِ المهاجمين فى لغتها الأوربية ، كما لم يُتحْ لهم أن يرصدوا التيار الفكرى المتدافع فى أوربا بما تجدُّ من نظريات ، أو تناقش من فروض ، فكانَ الأستاذ وجدى بثقافته الواسعة محيطاً بما يصطرع فى أوربا من مذاهب عقلية ، قد لا تمسُّ الدينَ مساً مباشراً ، ولكنها ذات أصول تمتد إلى فنون البحث العلمى ، ويتّخذ منها الذين لا يقفون على أصول الإسلام فى كتبِهِ المعتمدة معاولَ للهدم . بدلَ أن يتّعدوا ليعرفوا ما لَديهم قبل أنْ يناوئوه ، أجْل ، كان الأستاذ وجدى رحمه الله بطلَ الموقف فى أحْلَكِ سَاعاته ، وأقول فى أحْلَكِ ساعاته ، لأنّ انتصارَ انجلترا وفرنسا فى الحرب العالمّية الأولى قد بهَر النّاس بحضارة الغرب ، وفيهمْ من جَعل هذه الحضارةَ أساسَ الرقى الإنسانى ، وليته وقَفَ عند ذلك ، بل امتّد إلى الشاطىء الآخر ليجعَل ثقافَة الإسلام إحْدَى عواملِ الهبوط المشاهَد فى العالم الإسلامى ، ثم اتسعتِ الترجمات لتنقل آراءَ الملاحدة من أشياعِ المذهب المادّى ، فتكونَ عامل هدم حين تنسب إلى علماءٍ مشتهرين تجلجل أسماؤُهم فى بلادهم ، لتكونَ لدى أشياعهم فى الشرق أعلَى صَخَباً ، وأقوى فَرْقعة ، وقد احتلّ هؤلاء الأتباعُ منابرَ الإعلام فى أقْوى الصحف وأوسعها انتشاراً ثم فى الكليات الجامعية ، والمدارس العليا ، وكانت الموجةُ من القوّة بحيثُ ظنّ بها أن تكتسح الشطوط الواقية لولا أنّ الله قد حَفظ دينه بأمثال محمد فريد وجدى ، ممنْ تصدوا للدّفاع فصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأبلواْ خَير البلاء . ثم تجلّى الواقع المشرق ، بعد أنْ أفلستْ حضارة الغرْب بقيام الحرب العالمية الثانية المدمّرة ، فإذا رُعاة المدنية الأوربية وُحوشٌ فى غابة ، وإذا السرابُ الخادع لا يروى ظمأ ، بل يؤجّج غليلاً ، ولا بُدّ من اتجاهٍ آخر يتدفق ماؤه من نبع أصيل ...

كانت رسالة الدفاع شاقةً وعسيرة ، لا ينهض بها غير ذوى الكفاءة الثاقبة ، والأستاذ وجدى أول مَن تصّدى للدفاع بأقطع سلاح ، لأنّه جعلَ نفسَه جنديا فى كتيبةٍ مُستشهدةٍ لا تعرفُ الهوادة ، ومعها عُدتُه من الاطلاع الشامل ، والخبرة بآفاتِ الفكر المعاصر ، وعِلل ما يستورد من النظريات الخادعة . مع إلمام جيّد ببواعث التّهجم ، وَحيلِ التّربّص ، فإذا أُضيفَتْ إلى ذلك كله عفة القلم ، ونزاهة الضمير ، والارتفاع عن مهاوى الإسفاف ، كانَ المدافع متصراً فى ميدانه ، لأن هدوءَ النبرة ، وتلمّسَ العذر ، والمقابلة بالتى هى أحسن تدعُو المتسرع إلى الاتئاد ، والغاضبَ إلى

الهدوء ، لا سيّما إذا كانَ هذا السلوك المثالى من كاتبٍ يملك الإقناع ، ويعتصم بالبرهان ، وقد صدقَ الأستاذ العقاد حين ذكر أن الأستاذ وجدى قد اقتربَ بواقعهِ من المثل الأعلى ، إذ لا يستطيُع أعْتَى معارضيه أن يأخذَ عليه لفظاً يخل قليلا بآدابِ البحث ، وقوانين المناظرة ، كما كان هذا المثل الفريد واضحاً فى اتجاهه الفكرى فى شتّى ميادين البحث العلمى ، إذ لم يجعلْ من قلمه متجراً يعرضُ شتّى البضائع ، وما أقدرَهُ على ذلك ، فهو صاحب الموسوعة الكبيرة التّى تُسمّى بدائرة معارف القرن العشرين ، وقد جَمعت كلَّ ضروب الثقافة المعاصرة والقديمة ، أقول ، إنه لم يشأْ أن يجعَل قلمه متجراً لشتَّى البضائع ، بل حدّدَ وجهتَه فى الدفاع عن الفكر الإسلامى ، واستنْهاضِ الهمم الوانية كىْ تخفّ إلى دورها المرتقب ، وقد تهافتت كبرياتُ المجلات والصحف على آثاره ، ومنها بعض الصحف التى لا تؤيّد منحاه ، ولكنها تفخر بأن تكونَ معرضًا لشتّى الآراء ، فكانَ بحثُ الأستاذ بيْن شتى البحوث المختلفة ، بسمةً فى ثغر ، وبرقاً فى غَيْم ، أمّا المجلّاتُ الملتزمة فإنها تجدُ فى ثمرات الأستاذ أُكُلاً شهيًّا يستطِيبه القرّاء ، فهى تُبَاهِي به فى اعتزاز ...

وحين أرادتْ مشيخة الأزهر أن تنتقل بمجلتها من طوْر إلى طورٍ ، رأتْ أن الأستاذ محمد فريد وجدى أصلَحُ من يتولّى الإشراف على تحرير المجلّة ، لأن مجلة الأزهر فى طورها الأول حين كان يرأسُ تحريرها الأستاذ الكبير محمد الخضر حسين – وهو من أعلام الفكر الإسلامى المعاصر – كانتْ تُرضى حاجَة القارئ فى التفسير والحديث والفتاوى الفقهية ، والموضوعات الخلقية ، كما تضمّ جانباً من بحوث التاريخ الإسلامى وشجوناً من مسائل اللّغة والأدب فى لفظٍ عفّ ، ومنطق صائب ، وهذا كلّه موضعُ الارتياح من ذوى الاطّلاع ، ولكّنه ليسَ وحدَه كافِياً لمناهضةِ الشُّبهِ الغرْبيّة التى تَفِدُ إلى الشّرق بعامة ومصر بخاصة ، فى مظهرٍ برّاق يقع موقِعَ المُفاجأةِ ممّن لا يسبرون الأغوار ، بل يكتفون بالسطح الخادع ، ومِنْ هنا قامَ الأستاذ بتجديدٍ هادفٍ ، حدده بقوله – ببعض التصرف – [1] .

---

(١) افتتاحية مجلة الأزهر ، المجلد الخامس عشر ، المحرم سنة ١٣٦٣ هـ .

إن لمجلةِ الأزهر مقصدين عظيمين ، أوّلُهما خدمة الإسلام على النّحو الذى يتفّقُ وثقافة العصر الحاضر ، وتقبلهُ عقليّة أهْله ، وهذا مقصدٌ خاص ، فائدته قاصرةٌ على أهل هذا الدين فى مشارق الأرض ومغاربها ، ممن ينظرون إلى الأزهر نظَرهم إلى كعبةِ العلم ، وينبوع الهداية ، وقد وُفقت مجلّة الأزهر لتوفية هذه الخدمة حقّها ، أما ثَانى المقصدين فهو خدمُة القضية الدينيّة بوجهٍ عام ضدّ الفلسفة المادية التّى استبدتْ بالعقليةِ الأوربية ثلاثةَ قرون متوالية ، فأفسدتْ المذاهب الفلسفية ، واستندت إلى الناحية المادّية من العلم ، فجعلتْ لنفسها سُلطانًا على الأذهان لم يكن لتعاليمها الإلحادية فى عهْدٍ من عهود البشرية ، وأسقطتْ من سُلطان العقل ، فى الإشادة بالحسّ ، فأضاعتْ على الناسِ مزيّة الاستهداء بالوجدانِ ، ومع أنّ الدليل المحسوس هو الدليلُ الذى لا يمكن التّمادى فيه ، ولكنَّ فى الوجود حقائق أولية لا سلطان للحس عليها ، ولا يدركها إلا الوجدان والنظر العقلى المحض ، وهى تهم الإنسان ، وتؤلف عناصر كماله المعنوى ، وإنما اضّطرّت مجلة الأزهر لأن تقف هذا الموقف للدفاع عن الأصولِ الدينيّة التى تقرّرها ، إذ لا معْنى أن تقيم ما هى بسبيله من صرحِ الإيمان بينما تندس فى العقول مزاعمُ إلحادّية تهدمُ ما تُقيمه منه ، إن لم يكن علناً ، ففى ثنايا النفوس وأحناء القلوب ، فلم تنِ فى نشرِ البحوث الضافية فى محاسبة المذهب المادى مستندةً فى ذلك على الاكتشافات الحديثة للعلم ، فكان لجهادِها فى هذا السبيل أثرٌ ظاهرٌ فى إنارة القلوب ، وتعديل الأنظار » .

وهذا كلامٌ قاله الأستاذ بعد عشرة أعوام من رئاستهِ لتحرير المجلّة ، وهو مفهوم واضح لكلّ من تابع قراءة المجلّة من قبل ، ولكنّ اعتراضات وُجّهت لها بشأنِ اهتمامها البالغ بدَحْض الشبه الغربية ، وعَرْض ما يجدّ من الفلسفات الأوربية مقدّراً بميزان الإسلام ، وفى ضوءِ تعاليمه ! ومن هُنا اتجهت بحوث الأستاذ منذ ولِىَ رياسةَ التحرير وجهتينْ ، وجهةً أولى هى تجلية الأسس الإسلامية مقارنةً بغيرها من أسسِ مناوئيه ، ووجْهةً ثانيةً تتّجه إلى نصرة الدين باعتباره وحياً سماوياً ، وهى وجهةٌ عامة تشملُ الأديانَ الإلٰهية جميعها ، لأنّها فى صَميمها الخالص تحملُ جوهَر الإسلام الصادق ، وما جاءَ الاختلاف إلا بتحريفٍ تتابعتْ دلائله ، ووضحت مراميه ، وإذا كانت أكثر شبهات الملاحدة تتجهُ إلى زعزعةِ المفهوم الربّانى للدين ، فإن فى محاربة هذا الاتجاه

المخرّب ، توطيداً لمكانة الإسلام ، إذ هو الدين الخاتم ؛ دين محمد بن عبد الله !

توالتْ مقالات الأستاذ فى هذيْن الاتجاهين ، وقد تكونُ لهُ فى العدد الواحد أربعُ مقالات ، ومحاولةُ الاختيار من هذا الطوفان الهادر ، مُرهقة مُضنية ، ولكننّا نُرجح بعضاً عن بعض ، حين نَرى فى إحدى المقالات تكرارا لما سبق أنْ بيّنه الأستاذ من قبل ، ولا حيلةَ له فى هذا التكرار ، إذ كثيراً ما يضطّر إلى معالجةِ موضوع يحملُ جزئيّةً من موضوع آخر سبقَ أنْ وفّاهُ حقه ، فيضطّر إلى إعادةِ ما قال ، وكاتِبُ المقالات فى الصحف السيّارة ، غيرُ كاتِب الأبوابِ فى كتابٍ مستقل ، لأنّ مؤلّف الكتاب يرسمُ خطّته مَبدئيًّا فلا تتداخَلُ فصوله على نَحْوٍ يلفت النظر ، أمّا كاتبُ المقال فى صُحُفٍ دورية تتابعُ على مرّ الأعوام ، فيُواجهُ موضوعاً استدعتْه مناسبة طارئة فيقولُ عنه كل ما يجب أن يقال ، وإن كان منهُ ما سبق قوله فى مقال سالف ، وعندنا مجموعاتٌ أدبيّة لنفرٍ من صفوة الكتاب كالعقادِ والمازنى وطه حسين وأحمد حسن الزيات وأحمد أمين نلْحظُ فيها ما نلحظ من التكرار فى بعض مقالات الأستاذ وجدى ، هذا إلى أنّ طبيعة المقالات الهادمة للمذهب المادىّ تقْتضى الاستعانة بنصوصٍ قوية كتبها بعضُ الأعلام فى مؤلّفاتهم الغربيّة ، وهى من القوة فى التّدليل ، والبراعة فى الاستنباط بحيثُ تؤدى دورها فى تأييد الدين ، ومن هنا أكْثر الأستاذ وجدى من الاستشهاد بأقوال هؤلاء الأعلام ، والقارىءُ الحصيف يرحّب بها فى مكانِها الطبيعى لأنها تسد فراغا يتسع بابتعادها ، فلا ملام .

— ٢ —

وإذنْ فقد اتجهت كتابةُ الأستاذ وجهتين ؛ وجهةُ الإسلام باعتباره الدين الخاتم ، ووجهةُ تأييد الدين على إطْلاقِه ، ونبدأ بتلخيص زُبَدٍ منْ آرائه فى الوجهة الأولى ، ومن أُولها ما كتبُه تحت عنوان (المستقبل للإسلام) إذ طُلب إليه أن يُدلِى بأقوى ما يملك من حجج ، لكى يبين أنّ الإسلامَ دين المستقبل ، وكأنّى بالكاتب الكبير وقد اغتبطَ اغتباطا شديدا بما طُلبِ إليه ، لأنهّ حين يكتب فى هذا الموضوع إنما يخوضُ فى بحْرٍ سبر غوره ، وعرف اتجاهَ موجه ، وظفِر مِن أعماقه بأنفس ما يحرصُ عليه من الدّر الثمين ، إذ كان هذا الفيلسوفُ المؤمن يحلم بمدينة فاضلة تُحقّق السعادَة العامّة للبشر جميعا ، ولن تكونَ هذه المدينة إلّا فى ظلّ الإسلام كما نزلتْ قوانينه على رسول الله فى محكم القرآن ، وظلّ هذا الحلم الجميل يُراوح الكاتب

ويغاديه فى حياته الحافلة جميعها ، فهو يكتُبُ عنه مشوقا ، وفى ذهنه أنّ الصباحَ سينبلج عن نوره الوضىء ، وإذا لم يُتح له أن يَرى سيطرةَ الإسلام على الحياة فى عمره المحدود ، فإنه لَعلَى وثُوقٍ أنّ الأجيال القادمة ستَسْعدُ بتحقيق هذا الحلم ، لأنّه مطمحُ الإنسانيّة الواعد ، ولا بُدَّ أن تصل إليه عن قريب أو بعيد ! وما كَانَ الرجلُ مسرفاً فى خياله ، بل كان يرقُب أمواجَ الحياة منذُ تدفقتْ فى بحرها الأزلى فيرى نشأة البشرية فى الأغوار والكهوف ، وبيْن الضوارى والوحوش ، ثم محاولتَها التغلب على الصعاب حتى اهتدتْ بنور العقل إلى ما وصلتْ إليه الآن ، هذا العقلُ الذى صارعَ اللجج أجيالاً خلف أجيال حتى اهتدى إلى أمورٍ يُسلَّم بها اليوم دون نقاش ، اهتدىَ إلى وجوبِ أن يمحوَ التّعَصبَ المذموم للعقائد الباطلة ، وإلى أن يقُومَ النّظر العقلى مقامَ التقليد الأعمى ، وإلى أن ترتكزَ العقيدةُ على أسسٍ واضحة لا يتطّرق إليها اللّبس . ثم إلَى إيجادِ زمالةٍ عالمية بين الناس كافّةً ، ومحاربة ما يُحدث الشقاق بين الأمم والشعوب ، علَى أن يكون العلُم اليقينىُّ هو الفيصلَ بين الحق والباطل ! هذه الأصولُ لا مَحيص عنها فى بناءِ مستقبلٍ زاهر للإنسانية ، ومتى أصبحتْ عُنصراً رئيسيًّا من عناصر الحياة ، واهتدتْ إليها البشرية العاقلة فى مستقبل الأيام فستجدُ نفسهَا فى صميم الإسلام ، لأنّه يدعو إلى تحقيق ما تريد .

لقد كلّف الإسلام من يُريد اعتناقه أن يتجردّ من معتقداته السالفة ، وأن يخْلَع عنه ربْقة التقليد ، مخضعاً كلَّ ما يحصّله من المعارف لأساليب البحث والتحليل ، مُستجيباً إلى فطرته التى فطره الله عليها ، إذ كلُّ مولود يُولد على الفطرة ، نائياً عن الظنون والهوى لأنّ الظنّ لا يغنى من الحق شيئا ، مقدّراً نعمة الله عليه حين رزقه العقلَ الكاشف لأن شرّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، وهوَ غير مسئولٍ إلا عن نفسه إذْ ليسَ للإنسان إلا ما سعى ، ولا تزرُ وازرةٌ وزر أخرى ، وكلُّ هذه صُوىً تهدى إلى الصواب ومشاعلُ تبدّد الغياهب ، ولابدَّ للتقدّم الإنسانى أن يبلَغ هذا الحدّ ، بعد أنْ خطا العقل خطواته الفسيحة ، وببلوغه سيجدُ العالم نفسه فى صميم الإسلام !

هذا ما يؤكده الكاتب الكبير ، ولكنه لا يغفل أن يُواجه مَن ينكرون هَيْمنة الدين من الماديّين ، فيقول لهم إن التديّن غريزةٌ بشريّة ، وجُدت منذ وُجد الناس ،

وإذا كانَ البدائيون قد انحرفُوا حين توجهوا بالعبادة إلى غيرِ الله ، فهم متديّنون مُخطئون ، وغريزةُ التدين لديهم تَدعوهم إلى التعلّق بأسبابٍ تؤيدهم فى طريق الحياة ، وقد آنَ الأوان لِتسير الغريزة وجهتها السديدة نحو الدين القويم !

ويسأل سائلٌ ولماذا الاتجاهُ إلى الإسلام بالذات ؟ وهو سؤالٌ أجمل الأستاذ الإجابة عليه فيما سبق ، ولكنه يسعف سائله ببعض التفصيل المقنع فيقول[1] :

إن الإسلام قد دلّ على مناعةٍ لا تُرام عند سواه ، فقد احتَكَّ بالأديان التى سبقته ، حين كان جبابرةُ العقول يتولوْن الذود عنها ، فظهرَ عليهم بما سنّه من مبادئ رفيعة ، واجتذب منهم من عرفوُا الحق ، فصارُوا من كبار دعاته ، بل إنّ الإسلام وَجدَ دُعاته أحيانا من ذوى الفطرة الخالصة الذين لم يتبحّروا فى مسائل الفلسفة ، بل اهتدوْا بطبائعهم السليمة إلى نوره ، وقد تبارى دعاة المسيحية المثقّفون مع التجار المسلمين فى أفريقيا ، كلٌّ يحاول أن يضمَّ إليه هؤلاء الذين يعيشون دون دين صحيح ، فكانتْ فطرة الإنسان هاديتَهُ إلى الإسلام ، ولم يفلحْ دَهاقينُ المسيحية إلاّ بإغراءاتٍ من المال وأحلام من المطامع فى اجتذابِ من قدروا على إغرائه ، أما التجّارُ البسطاء من ذوى الفطرة السليمة فقد جذبُوا عشرات الملايين من النفوس دونَ وعدٍ كاذب أو إغراءٍ خادع ، إذ كانوا يسبحون مع التيار الفطرى دون أن يصطدموا بالجنادل والصخور .

ثم إنّ الفلسفة اليوم عِلْمِيّة بحتة ، أى مؤسسةٌ على الأصول التى تدفع المعلوم إلى المجهول ، وِفقاً للأسلوب العلمى ، لا أنّها خياليةٌ تصويرية يطير بها الإنسان على جناحٍ من الأوهام كما كانت من قبل ، وهذه الفلسفةُ العلمية الحقيقية لا بُدّ أن تبلغ مبلغها من الصواب ، فتهْتَدِىَ إلى الدين الصحيح .. ونحن لا نستطيع أن نُنكر العالم العلوى بحجةِ أنّنا لا نراه بأبصارِنا ، ولا تحسّ به مشاعرنا ، لأنّ فى الوجود الذى نعيش فيه ، ظواهر مادية كشفها العلم المحسوس وقرّرها ، وكنا لا نتصور وجودها ، فهل كانت هذه الكائنات الخافية غير موجودة لأننا لا نراها بالحواس ؟

---

(١) مجلة الأزهر : صفر سنة ١٣٦١ هـ ، ص ٥٩ .

ثم إن العلم قد قَرّر أنّ حولنا من الحركات والذبذبات الأثيرية ما لا نراه ولا نحسّ به ، بل حَوْلنا كثير من الكائنات الحية التّى لا تُرى ولا تُلمس ، وتعجز الحواس عن إدراكها !

فبأىّ حق يجوز لنا أن ننكر العالم العلوى لأننا لا ندركه بالحواس ، وإذا تقدمت الإنسانية فى كشوفها العلمية فستصلُ إلى ما يؤكّد حقائق الإسلام ، ولنْ يطول الأمد ، لأن الاكتشافات تتوالى على نحو سريع !

لقد نبغ فى الأرض مصلحون كثيرون ، ولكنّهم جاءوا بالأوليات ، ثم كمّل عملهم فى قرون كثيرة بواسطة مَن تتابعوا من تلاميذهم ، فجاءُوا بالمقدمات ، ووكلُوا لخلفائهم أن يُحاولوا التمام ، ولكن محمدا ﷺ جاءَ بالنهايات ، ولم يقفْ عند الأوليات ، فوضع أساسَ الاجتماع ، وأصلَح المعتقدات ، وأنار العقول ، ولم يترك الأمّة إلا وهى مَثَلٌ عالٍ لما يمكن أن تكونَ عليه جماعةٌ من صحّة الاعتقاد ، وترابط الآحاد ، وتوحّد الوجهات ، وتكافلِ الطبقات ، هذا من ناحية بناء المجتمع ، أما مِن ناحية النّظم التى يجب أن يقومَ عليها ، فقد جاءَ الإسلام بكتابٍ مكتمل شمَلَ من أصول التشريع ومبادئ الاجتماع الراقى مِن العدالة والمساواة والحرية وحدود الحقوق والواجبات ما لم تصل الأمم المتقدّمة إلى بعضه إلا فى العصور المتأخرة بعدَ قرونٍ قضتْها فى الانقلابات والفتن والثورات . وإن نبّياً يأتى بدين مكتمل فى بيئةٍ لا عهد لها بالتشريع ، وينجح فى جذبِ الملايين إلى وجهته لصادقٌ صدوق ..

ولكثرةِ ما عالج الأستاذُ قضايا الفكر الإسلامى نراه يُحسنُ اختيارَ النصوص الدالة من القرآن والحديث بحيث يأتِى الاستشهادُ فى موضعه الصحيح دونَ تعسف ، ولهُ فى صوغِ المقال الدينى أسلوبٌ مؤثر يرضى العقلَ بمنطقِهِ كما يريحُ القارئ بوضُوحه ، ولا يهجم بهذا الاستشهاد دُون أن يمهّد لهُ بذكر القضية الّتى يعالجها محاطةً بالبراهين الفكرية قبلَ النص الدينى ، حتى إذا أشبَعها تحليلاً وتفسيراً ، وأفاض فى عرضِها المستوعب جاءتِ النصوصُ فى الخاتمة مصدقةً لما بيْن يديها من الآراء ، وذلك مذهبٌ سبق إليه الأستاذ الإمام إذْ يَفْتَرضُ فى قارئه أنّه غيرُ مُسْلمٍ ، وأنهُ مستعدٌ للمعارضة إذا رَأى وجهاً من وجوه الضعف ، ولا سبيلَ إلى إقناعه حينئذٍ إلّا بالمنطق

الصريح مشفوعاً بما يؤيده من قضايا علم الاجتماع ، ودلائلِ الأحداث التاريخية فى الماضى والحاضر ، وقد تحدّث الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله عن انتفاعه بمجالس الأستاذ فريد وجدى الذّى كان يَؤُمّها زائرُوهُ فى منزله بعدَ صلاة المغرب من كل يوم ، حيثُ يتّسع المجال لتعليقاتٍ مفيدة تدورُ حول قضايا الحاضر والمستقبل ، وهذا الاتصالُ المباشر بجمهرة الشَّبِيبة الإسلامية أَفَادَ الكاتب الكبير فى تعّرفِ الاتجاهات المختلفة كما فَتح له أبوابَ الموضوعات التى تشغلُ أنصارَ الفكرة الإسلامية لِيُلْقِىَ عليهَا مزيداً من الضوء فى مناقشاته . ثم لتكونَ مادّةً للبحث العلمى حين ينتقلُ بها من ندوات السّمر العلمى إلى صفحاتِ المجلاّت ، وأبواب الكتب ، وإذا كانتِ الصحف العربية على مدَى خمسين عاما لم تخلُ من آثارِ الكاتب المتتابعة فإنّ محاولة تتبّعها مما يُرهق ، ومن المؤكد أنّ إلْحَاحَهُ على تأكيد صلاحية الإسلام لقيادةِ العالم ، قد نزَلَ من نفسه منزلةَ الرِّسَالة الواجبة الأداء ، كما دفَعه إلى تحديد مكانةِ المسلمين بين الناس ، إذ كانوا خيرَ أمّة أخرجت للعالم ، لم يتميّزُوا بلونٍ أو لغة أو جنس ، بل لكونهم يأمرونَ بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويؤمنونَ بالله ، فهمُ الأمةُ الوسط التى عناها الله بقوله : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [٢] وقد علّق الأستاذ على هذا النّص الكريم بقوله : « إنما جعلناكم كذلك ، لنسند إليكم مهمةً عالمية جليلة الشأن ، هى أن تكونوا شهداءَ على الناس فى تقْصيرهم وغلوّهم ويكون الرسول عليكم شهيدا ، وهذا مثلٌ أعلى من مُثل الاجتماع لم ينزلْ به الوحْىُ على أمّةٍ غير الأمة الإسلامية ، وإنّه لأمرٌ جللٌ يحقّ معه للأمة التى تنالُ هذا التقديرَ أن تبذلَ كّل ما فى وسعِها من علم وعمل للمحافظة عليه ، .. ولا جرمَ أنَّ أمّةً تَنصبٌ من نفسها حسيباً من هذا الطرازِ الصارم ، وتُقيم من ضميرها المشْبع بروح العدل رقيباً على سيرتها ، تَصل إلى أسمى درجات الكمال الاجتماعى ، وتتهدَّى إلى أبلغ غايات الرقّى المادّى والأدبى ، فإذا قُلنا إن هذا المثلَ القرآنّى الأعلى كان أثرُه على الأمة الإسلامية الأولى

---

(١) هذه حياتى للدكتور عبد الحليم محمود ، ص ١١١ .

(٢) سورة البقرة : ١٤٣ .

أنْ حفظها أوّلاً من التدنس بالمطامع الذاتيّة ، والتنمّر للجماعات التى وقعت تحت سلطانها ، وأنهُ مكنها ثانياً من الاتصال بروح الوجود وقيّومِه ، فأيّدها بما سمَح لها أن تطوى الزمان طيًّا ، فتبلغ فى سنينَ مَعدودة ما لم تبلغ بعضه الأمم فى قرون كثيرة . لو قلنا ذلك لما كنا مبالغين بشهادة الانتقالات الاجتماعية والمدنية الخطيرة التى تمت للمسلمين فى سنوات قليلة »[1] .

أمّا كونُ هذه الأمة الوسط خيرَ أمّةٍ أخرجت للناس ، فمما لم يَفتِ الكاتبَ الكبير أن يدلّ على مغزاه فهو يرَى أنّ هذه الخيريّة قد ساقت المسلمين إلى النجاح المثالى فى نشر الدعوة حين ظهورها ، فدفعت ما رانَ على القلوب من جاهليّة ، وكَسرتْ ما طوّق الرقاب من أغلال ، فبعدَ أن كانتْ بلاد العرب مباءةً للوثنية ، ومَوْئِلاً للجمود والتحجر أصبحتْ مثاراً لأعظمِ اندفاعٍ إنسانىّ بعيد الأثر فى تحطيم الحجب وإزالة القواطع الناهضة أمامَ المدنية الفاضلة ، هذا فى عصرِ النبوة ، ثم هُوَ بعد انقضائه لا يزال عاملَ إثارةٍ حميدة فى استفزازِ الهمم ، لأنّ الله لم يَحصر خيرَ الإسلام فى القوّة أو الثروة بل أطلقَه ليبعثَ الكمال الإنسانى فى الكون ، لأنّ الأصولَ الإسلامية مقيسةٌ على طاقات النفوس ومؤلفةٌ بحيث تثيرُ قُواها الكامنة فيها ، محصّنةً بما لديها من المناعات الواقية .

وفى ظلال الاعتزاز برسالة الأمة الإسلامية ، ظهرتِ القوميات فى أوربا ، تُنادى بتفضيل الوطن ، وارتفاعه عن غيره بما تخلُق له من مزايا يُجيد ابتكارهَا المحترفون ، وانتقلتِ العدوى إلى بلاد الإسلام ، إذ ظهرَ من يدعُون إلى القوميّة . وكأنّها فى مظهرها مباينةٌ للإسلام ، ولهؤلاء ذيولٌ من الببغاوات التى تردّدُ أنّ الوحدةَ وحدةُ جنسٍ لا وحدةُ لغةٍ أو دين ، وقد تسامحُوا فى عدِّ اللّغة عُنصراً من عناصر الوحدة ، إذ رأوْا الأمّة العربية لا تَحيدُ عن لسانها رغمَ الدعوات الملحّة إلى العاميّات فى الأقاليم المختلفة ، تسامحُوا فى عدّ اللّغة عُنصراً من عناصر الوحدة ، وقَامَ الدينُ شجًى فى حلوقهم . وكأنه عقبة العقباتِ فى مجال التقدّم ، وقادَ الجمهورَ فريقٌ منِ رجال السياسة لا يفهمون شيئاً عن الإسلام ، ولكنهمْ وجدوا فى الدعوةِ إلى القومية

---

(١) مجلة الأزهر : ربيع الأول ١٣٦٦ هـ .

تثبيتاً لزعامتهم ، فعملُوا على ترْسيخها ، ومحاربة كلّ من يتجه وجهةً أخرى تتسع للمفهومِ الإنسانى الشامل ! فكتبَ الأستاذ وجدى مقالاتٍ هادفة توضّحُ أنّ الوعَى القومى لا ينافى الوعَى العالمى ، لأن شعورَ الأمة بوجودهِا كوحدة اجتماعية لها حقوقها الطبيعية ، وعليهَا واجباتُها الإنسانية لا ينافى أنْ تكونَ هذه الأمة خلِيّة من خلايا الجسم العالمى الذى يجب أن يتماسَك ، وإذا كانتِ الدعوات المناديةُ بضرورةِ اعتبار البشرية جميعها وحدةً واحدةً تبْطُل معها الحروب ، ويحلّ التفاهم محلّ التنابذ ، إذا كانت هذه الدعواتُ الإنسانية رَدَّدَهَا أفرادٌ من مُفكرى أوربا ، فإنّ الإسلامَ قد احتضَن هذه الدعوة المباركة ، على حين لم يغفلِ الدعوة إلى الاهتمام بالوطنِ الخاص إذ أنّ المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وقد جاءَ قول الله عز وجل : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُم عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَـٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [1] جاءَ هذا النص الكريم إيذاناً للعالم أجمعه بضرورة التّعارف . وإذنْ فللمسلمينَ فوقَ شعورهم القومىّ شعورٌ عالمى يشمل الإنسانية جمعاء ،! هذَا الشعور الإنسانىّ النبيل يقفُ موقف النقيض من رأى فليسوف الفلاسفة أرسطو حِين اعتبَر الأرقّاءَ من البهائم المجردّة من الإنسانية ، ومن رَأى أفلاطون الذى يحمد الله أن خَلقَه يُونانيا و لم يُقّدِر له أن يكونَ منِ جنسٍ آخر ، وإذا كان الوعى القومى لَبِنةً فى بناء الوعى العالمى ، فهما مُتساندان لا متنابذان .

وفى حومةِ الجدل فى هذه الآراء الثاقبة ذاتِ النظر الفسيح يُفاجَأُ الأستاذ وجدى بمن يعترضُ عليه بأنّ الدعوةَ للإسلامِ دعوةٌ للبدع التى تأخّر بسببها المسلمون ! ولو كنتُ مكانَ الكاتب الكبير لأغفلتُ هذا الهراء الذى فات أوانه ، فقد كَلَّتِ الألسنةُ من إيضاح هذه البدع ، ومجافاتها لروح الإسلام ، بحيث لم تعد قضيّة تُثَارُ ، ولكنّ الرجل السَّمَح يتلقّى كل اعتراض بالابتسام . ويردّ عليه ، حتى لو وُجِّهَ له فى كتابٍ خاصٍّ بالبريد ، فإنه يكتُب الرّد بالبريد أيْضاً وقد يَشتملُ على عشرِ صفحاتٍ إرضاءً لنزعته الإنسانية فى الهداية والإرشاد ، لقد كَرَّرَ الأستاذُ القولَ

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

فى هذه البدع استجابةً للاعتراض الموجّه إليه ؛ فذكرَ أنّ من أوليات التشريع الإسلامى تخليصَ الإنسان من الآصار الوهْمية التى أنقضتْ ظهره والوساوس الجاهلية التى ضلّلتْ عقله والجهالاتِ الوراثية التى أفْسَدتْ قلبه ، حتى يكونَ من التنزّه منها على مثل ما كانَ يوم ولدته أمّه ، أىْ على الفِطْرة التى فطَرهُ الله عليها ، ولكنّ الشعوبَ لا تخلوُ من جهلةٍ أُميّين تأنسُ نفوسهم للبدع ، وتسلمُ مقادتَهم للمضلين ، فانتشرت فيهم تقالِيدُ وعَاداتٌ ليست من الدين فى شىء ، بل هىَ تُجافيه كل المجافاة ، واضطر حُماةُ الإسلام أن يَدْحضوا البدع بما أذاعُوهُ من مؤلفاتٍ ، وألقوه من محاضرات . ولكِنَّ الغرضَ السّيىء لدىَ من ينتفعُون بهذِه البدعِ قد صمَّ العامةَ عن النُّصح الزاجر ، فاكتسبْت هذه البدع باستمرارِها الدائم قوةً أصيلة ، حتى اختلطت بالدين فى نظر الدهماء وصارتْ جزءًا منه ، وأصبح لها من المرتزقة دُعاةٌ مروّجون ، وجاءتِ الحكومات فاسترضَت العامّة بتأييد هذه البدعِ حتى أصبحت عبئا ثقيلا على المصلحين ..

والرأى الصريح لدى الكاتب الكبير أن يتعاونَ العلمُ مع الدين فى تزييفِ الضَلالات ، إذْ لا عداءَ بين العلم الصريح ، والدِين الصحيح ، وقد بدأ المخلصون من العلماء فى هذا الاتجاه ، إذ عَملوا على تخليص الدين مما علقَ به من الأوهام ، حَدَثَ هذا فى الغرب ، ويحدثُ مثله فى الشرق ، وهو مفيدٌ للدين بنوع عامٍّ ، لأن الإسلام لم يَنْزِلْ باعتبارِه ديانةً جديدةً . ولكن باعتبارِهِ الدينَ المطلق الذى أنزله الله على جميع أنبيائِه ورسله ، فحرَّفتْهُ الأمم وأفسدتْ أصوله القيّمة بشروحٍ وتأويلاتٍ حسبتها تخدم أغراضه وجهلتْ أنها خرجتْ به عن دائرته ، وأحالَتْه إلى علمٍ بشرىٍّ لا يتّصِل بالسماء ، وعلى المسلمين أن يَعْرِفوا أنهم يمثّلونَ الدينَ النّقى الخالص فلا يسمحوا للعامّة ولا للخاصةِ أن ينْحرفُوا عن أصولِه بإحياءِ البدع المنكرة ، والتقاليدِ السقيمة ! فذلِكَ خطرٌ كبير .

— ٣ —

لا أظنّ كاتباً ألحّ على مهاجمةِ الماديين طيلةَ نصفِ قَرْن ، بحيثُ لا يكاد يمرّ أسبوعٌ دوُن مقالٍ كاشف لبعض الحقائق العلمية التّى تهدم المذهب المادى وتقتلعُه من جذوره ، كما ألحَّ الأستاذ وجدى على مكافحة هذا المذهب ، ومع أنّه أصدرَ

ثلاثةَ أجزاء حافلةٍ تحت عنوان (على أطلال المذهب المادى) فجمعتْ ما يمكن أن يُقال فى دحض هذا المذهب ! وكانَ فيها اقتناعٌ باللجوء إلى جبهةٍ أخرى غير جبهة الماديّين !! مع هذه الأجزاء الثلاثة التّى استوعبت ما يكفى للإطاحة بهذا المذهب ، فقد جَعل شُغْلَه الشاغل بعَدْ صُدور هذه الأجزاء تتبُّع ما يقولُه الماديون فى صُحف الغرب ليكرَّ عليه بالتفنيد ، ولا يُقّدرُ ذلك الجهَد المتّصل حق قدره إلّا منَ يعلم ما يجلبهُ المذهبُ المادىّ على الإنسانية من شُرور ، لأنّه فى صميمه ينكِرُ خالَق الكون . ويرى الإنسانَ حيواناً يأتى ويذهبُ دُون أنَ يرعى حقوق الناس أو يخافَ المسئولية يومَ الحساب ، وتصوّرْ مُجتمعاً بأكمله يعتنقُ هذا المذهب ، فلاَ يستشعر وجودَ ربٍّ قادرٍ رحيم يلجأ إليه فى الشدائدِ راجياً أن يُسعف العاجز المقهور ، أو يَشفى المريض المتأوّه ، أو يَرْزقَ الجائع الملتاع بحيث تصيُر الحياة مفقودةَ الأمل فى النّصير مظلمةً فى عين من يسرى بليلٍ بهيم دوُن أن يأملَ الشرق المضىء فى الصباح ! ثم تصوَّرْ ثانيةً كيفَ يعيش أفرادُ هذا المجتمع ، وكلُّ واحدٍ منهم لا يخشَى رقيباً يؤاخذه إذَا اقترفَ الجُرم الشّنيع ! لهُ أن يسرقَ ، وله أن يقتل ، وله أن يفجر ، وَعليه أن يحتاط فلا يقعُ فى دائرةِ القانون الرسمّى – فإذا تستّر فى جرائمه فقد نجاَ إذْ لاَ حشرَ ولا حساب ! تصوّرْ مجُتمعا لا ربَّ يحميه ، ولا يومَ حسابٍ ينتظره ، وافرقْ بينه وبين مجتمع الضّوارى الكاسرة ، حين يأكُلُ الكبير الصغير .. إن إنقاذ البشريّة من وباء المذهب المادّى جديرٌ أن يتفرغَ له حشْدٌ من الكتّاب فى العالم العربى ، كما قامتِ الحشودُ المناوئة له فى الغرب ، وأحسبُ أنّ الأستاذ وجدى قد أدرك ذلك كلّه ، فجعلَ من شغله الشاغل أنْ يُواصل الهدم الملحّ لآراء الماديّين . وأحسُبه قد فازَ بالنصر المبين .

على أنّ إلحاحه فى التفكير المتّصل بهذا المنحى قد هداهُ إلى التفكير فى وضعِ منطقٍ دينّى يهدم به زيُوف المذهب الإلحادىّ . فهو صَاحبُ مذهبٍ فى التفكير الدينّى يعصم من الخطأ ، وقد شرحَ ما دفعه إلى وضع هذا المنطق الجاد فقالَ إنّ للمعقولات أداةً تعصم من الخطأ ، وللمعلومات أداة تُرشد إلى الصواب ، وتحمِى الباحث من الخلط بين ما هو علم يقينّى ، وما هوَ رأىٌ مُرجَّح ، وما هو افتراضٌ مؤقّت ليأمن العقل بالمنطقِ النظرىّ من الخبط على غير هدى ، وليتقى الباحث فى قضايا العلم

أن تكون هذه المظنونات فى مرتبة اليقينيات ، وقد وضع المنطق الأول أرسطو ، ووضع المنطق الثانى (بيكون) فلا بدّ أن يكون للدين منطقٌ يحُول دون الخلط بين الحقائق والأوهام ، وفيما وصل إليه العلم العصرىّ والفلسفة الحديثة من النظريات والمعارف ينبوعٌ لا ينضب لبناء أصول هذا المنطق ، وهذا العصُر أنسبُ الأوقات لوضع الأصول الكافية لمنطقِ الدين ، لأنّ العلم قد وصلَ إلى حَدٍّ بلغ فيه سِنّ الرشد لا من ناحية أنه انتهى إلى حدودِ ما يُمكن معرفته ، ولكنْ من ناحية أنّه أدرك أنّه يقدر على أن يُعيّن ما يمكن معرفتَه من المجهولات ، وما لا يمكن أن يصلَ إليه . ثم ساقَ الأستاذ نصوصًا كثيرة لأعلامٍ من علماء الغرب تؤكّد الحدود التى تنحصرُ فيها قُدرة العلم ، كما أنّ التواضع العلمى الآنَ أصبح ذا سيادةٍ ، إذْ قضَى على خُيلاء من يظنّون أنهم قد سبروا الكون ، وأدركوا العلل والأسباب لكل ما يجرى به ، حيثُ اتضّحتْ من الحقائق العلمّية الجديدة مسائل عصفتْ بالمقرّرات المتوارثة ، والأصول التى كان يُظن بها الرسوخ ، كما أنّ المكتشفات الهائلة فى عالم الروح قد فتحتَ آفاقاً بعيدة للنظر العلمى السديد ، وكلّ ذلك قد أيقظ العاطفة الدينيّة ، ومهّد الطريق لخَلاص الروح ممّا يلحقها من وَساوس الأساطير القديمة .

يقول الأستاذ محمد فريد وجدى « هذه الحالة العلمية الراهنية تسمحُ لمثلى أن يَستفيد منها فى وضع منطق دينى مُسْتمد ممّا تقّررهُ المعارف الممحّصة ، بحيث لا يخرج فى أصلٍ من أصولِه عما ثبتَ بالبرهان القاطع من بحوث العلماء ، وما عُرف من اتجاهات النفسيّات الصافية . وإنى أعتقد أن الروح العصرية قد نضجتْ لظهور مثل هذا العمل العلمى ، لأنّ المقررات التى يجب أن يستمِدّ منها مادتَه ليستْ مما يتغير بتغير الأزمان ، ولست أبالغُ إذا قُلْتُ إنّها أصبحت بدهياتٍ علمية تكاد تكونُ فى مستوَى المعلومات الضرورية للإنسان [1] » .

وقد بنى الأستاذ منطقه الدينى على أصول نذكر منها هذين :

١ – تساوى الناس جميعا فى الحقوق بحيث لا يتفاضلون بجنسٍ أو لغة أو لون ، ولكن بالمزايا الأدبيّة والقوى العقلية .

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ، العدد الثانى سنة ١٣٥٨ هـ .

٢ – الدينُ غريزةٌ عَقليةٌ موهوبةٌ لا مكتسبة ، فهو شيءٌ فطرى لا خلاص منه .

وقد فسح المجالَ لتحليل هذيْن الأصلين ، وتطبيقهما على مقرّرات الإسلام ، ليتخذ المنطق الدينى من الإسلام دعامتَه العلميّة فيما جاءَ به من نصوص ، والعمليّة فيما طبّقه من قواعد عبْر التاريخ الممتدّ منذ العصر النبوى ، وبديهىّ أنّ محاولَة إيجادِ منطقٍ دينّى مدعمٍ إنمّا هى بذرةٌ تُلْقَى فى أرْض ، وعلى الباحثينَ فى هذا الاتجاه ، أن يُوالوا الثمرة بالرَّى والرعاية حتى تنشقّ عن دوحةٍ باسقة الظلال ، وكلّ المذاهب التى تنسب إلى رءوسٍ مفكرة كانتْ متواضعةَ النشأة ، حيثُ غرسَ الأستاذ بذرتَها الأولى ، وتوالَى التلاميذُ من بعدِه ليرعوا غراسه بالتعهّد اليقظ ، ولدينا كلّياتٌ متخصصة فى شئون العقيدة ، وبها أساتذةٌ مخلصون ، ولهمْ تطلُّعٌ وارتقاب ، ومن وَاجِبِهمْ أن يحتضِنوا كلّ فكرةٍ مخلصةٍ تهدى إلى النهج القويم .

وقد تنوعتِ الأساليب الّتى يتخذها الأستاذ فى تأييد مذهبه ، فهو مرّةً يَصْطَنِع طريقة الحوار أخذاً وردّا لتنجلى الحقائق باحتكاك الآراء ، وتَصارُع الأفكار ، وثانيةً يتخذ المقال العلمى سبيلاً للإقناع فيبدأ بمقدّمةٍ دالّةٍ ، يليها عرضٌ كاشف مبسوط الأدلة ، متعدد البراهين ، ثم يختم بتلخيصٍ وجيزٍ يشير إلى زُبْدةِ ما يرمى إليه ، وثالثةً يكتب عن علم من أعلام الفكر الدينّى ليتحدث عن آرائِه فى الحياة والبعث والخلود ، وارتباط الأسباب بالمسببات ، منتهزاً فرصة الاحتفال بذكرى ، أو بمنح جائزة ، أو صدور كتاب جديد . ويُخَيَّل إلَّى أنّ طريقة الحوار هى أسهل الطرق إلى إيضاح المراد ، وقد أبدع الأستاذ وجدى كل الإبداع فيما انتحَى به هذا المنحى فى كتاب (الوجديات) ثم فى بعضِ مارَفدَ به مجلة الأزهر من بحوث ، ومنها ما كتبه تحت عنوان (حاجة الناس إلى الدين) [1] فهو ذُو حجاجٍ فكرى يَروى النفوس المتعطشة إلى الاقتناع ، فالمادّيُّون يقولون مثلا :

(أ)إن الإنسانَ قد اندفعَ إلى التديّن خوفاً من جوائح الطبيعة ، وما تفجأُ به من رعودٍ وزلازل ، فيكون الرد :

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، الجزء الخامس سنة ١٣٦١ هـ .

(ب) ما بالُه وقد أمِن فى مجتمعٍ راق يزداد شعورا بحاجته إلى التدين ؟

(أ) إنه يتديّن طمعاً فيما وعد به بعد الموت من وجود كريم ونعيم مقيم .

(ب) ومن أيْن أتاه هذا اليقين الذى يدفعه إلى هذه النهايات البعيدة ، وهو وَقْفٌ على الموجودات المحسوسة كما تعتقدون ؟

(أ) إنه يفكّر فى المستقبل ، تفكيرَ الذى حصّلَ شذوراً من العلم فهداه تفكيره إلى مثل هذا المصير .

(ب) إذنْ قد تعانق العلم الصحيح مع الدين الصحيح ، فإذا أمكنَ أن يُهْدَمَ العلم أمكن أن يُهدم الدين .

(أ) التشبيهُ مع الفارق لأنّ العلم قوامُ الإنسانية ، ولا صلاحية للوجود بغيره ، ولكن الدين شهوةٌ عقلية تستقيم بدونه أحوال الأفراد والجماعات .

(ب) هذه تفرقَةٌ غير صحيحة بين الحاجات الإنسانية فقد تكونُ الحاجةُ العقليةُ أشدَّ علوقا بالنفس وأفعل فى تقويم الحياة من الحاجة المادية لأنّ المدارَ على قيمتها فى النفس الإنسانية ، والإنسان كثيرا ما يضحّى بالماديات فى سبيل فرحه بالمعنويات .

(أ) كانَ ذلك فى عَهْد القصُور العلمى ، أما الآنَ وقد ارتقت العلوم والمعارف فقد أحسّ الإنسان أن الحاجة الروحية ترتكزُ على هوى يمكن التغلب عليه .

(ب) العلمُ لم يقدرْ بعدُ على كبح الأهواء البشريّة ، وكَسْر عرامها ، ولكنّه ساعد على الحُروب الفاتكة ، والاختراعات المبيدة ، فهو لا يُغنى غناء الحاجات المعنوية .

(أ) لماذا لم تَخْلُ العصور التى كانت السيطرةُ المطلقة فيها للدين من ويْلات الحروب وآفات الدمار ؟

(ب) ليسَ ذلك بسبب الدين ، ولكن بسببِ الانصرافِ عن الدين ، ولو كان للدين السلطانُ الحقيقى مافزعت الإنسانية مما تكابده من الأهوال .

هذا حوارٌ لم يُسقْ هذا المساقَ فى مقال الأستاذ وجدى ، ولكنّى استخلصتهُ

ورتّبْته ليكون واضح الدلالة فى مغزاه العلمى من ناحيةٍ ، وليخفّفَ بعضَ الجفاف لدىَ نفوسٍ لا تجد الصّبر على الأخذ والرد فى نقاطٍ مركّزة تستدعى شدّةَ اليقظة ووفرة الانتباه .

وإذا كان الأستاذ قد وضَع بذرةَ ما سماه (منطق الدين) فإنّه نظَر فى الأسلحة الجدليّة التى كان يتخذُها علماءُ الكلام فى صوغِ براهينهم العقلية ، فرآهَا اليوم ليستْ كافية فى أداء رسالتها المنشودة ، لأن المسائلَ الكبرى التى يهمّ الإنسان معرفتها وهى أصلُ الوجود ، وحدوثُ الكائنات ، وتولد الحياة ، ونشوء الروح الإنسانية ومظاهرِها المختلفة ، كلّ هذه المسائل قد شغلتْ الفلاسفة فى القدِيم والحديث ، ولكنها تعجزُ اليومَ أن تبلغ منزلة الإقناع من المثقف المعاصر ، لأنّ علماء الطبيعة قد نظروا للكون نظراتٍ جديدةً يصعبُ على علماء الكلام أن يُطلوا ما اهتدوْا إليه من هذه النظريات ، وعليهمْ أن يدرسوا هذه الفتوحات العلمية ليروْا دلائلَ جديدة لقدرة الله فى دقّة النظام الكونى ، واطراده على سَنَنٍ لا يتبدل ، معَ عدمِ التسليم بنظريةٍ طبيعيّةٍ إلا إذا استقرّ التدليل عليها فى موضعٍ مطمئن لا يتزعزع ، وحينئذ يكون العلم المعاصر سُلّماً للاطمئنان الفكرىّ فى مسائل الدين » لا أن يكونَ شوكةً فى جنبه ، وما ينفر من قضايا العلم الصحيح إلاّ من عجزَ عن إدراكها ، فاكتفى بالتنديد والتهويل .

وقد انتقل الأستاذ محمد فريد وجدى قبل أن تلفظ الشيوعية أنفاسَها فى أوربا بستّةٍ وثلاثين عاما ، ولو امتد به الأجل لرأى تحقق قوله [1] :

« فهذا التورط الشنيع الذى تتكلّفه الشيوعية ، وتحتفظ به فى سيلٍ عارم من دماء البشر فى سبيل اجتثاثِ الدين مِن قلوبهم لا يُعقل أن يدوم » إذ أنَّ الأيّام قد صَدّقت ظنه فى إبادةِ هذا الاتجاه الفوضَوىّ الإلحادى على أيدِى أنصاره ، لا عَلى أيدِى خصومه ، وتلك هى العجيبةُ حقّا ، لقد نازل الأستاذ وجدى الشيوعية كما نازلَ غيرها منَ المذاهب الهدامة الوافدة ، ولم يكنْ فى نزالِه ذا عاطفةٍ متحمّسةٍ فحسب ، ولكنه كان ذا منطقٍ عقلىّ واضح المهيع ، وهو يَوْحى هذا المنطق الواضح ،

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد الحادى عشر ، سنة ١٣٥٩ هـ . ص ١٠١ .

يُحدّد مجرى الحديث فلا يندفُع فيه إلى استطرادات فسيحةٍ تنتقل بعقل القارئ فى شتّى الأودية ، بدلَ أن تحصره فى حيّز محدود المعالم ، بارز الاتجاه ، فقد قالَ فى بدء حديثه إن حياةَ الشعوب الاجتماعية تقوُم على سنّةٍ طبيعيّة ثابتةٍ من التطور التدريجى فلا يُستطاع نقلُها من حالٍ إلى حالٍ بنظام يُبتكر ، أو ببرنامجٍ يُتخيّل ، ومن هذا القبيل جاءتْ جمهورية أفلاطون وسياسة أرسطو وكلّ المدن الفاضلة فلم تُغن شيئا ، والنظرةُ المركزّة إلى أصولِ المذهب الشيوعى تحُدّها فى ثلاثةِ أشياء رئيسيّة ، أولها مَحْوُ المِلْكية الفردية ، والحقوق الوراثية ، وجعل الأرض وما عليها ملكا لجميع الأفراد . وثانيها حذفُ رءوس الأموال الفردية ، وجعلُ الحكومة قيّمةً عليها ، وثالثها استئصال شأفة الدين من المجتمع باعتباره ألدّ أعداء الشيوعية .

أما الأصلُ الأول وهو محو الملكية الفردية فمناقضٌ للوضع الطبيعى ، لأنّ الناس كانوا فى أوّل نشأتهم لا يعرفونَ الملكية ، بل ينحصُر جهدهم فى الحصولِ على الغذاء ، ثم هُدُوا إلى الزراعة التى تُشبع الجوعة فحسب ، حتّى إذا تقدّم الاجتماع ، وزادتِ المعرفة بأدواتِ التحصيل ، وتميّزت الأسر ، وُجِدت الملكيةُ الفردية . فالملكية إذنْ ارتقاءٌ من الشيوعية إلى ما فوقها ، فإنْ عادت أمّةٌ إلى الشيوعية الأولى زايَلَهَا ما ابتنى على الملكيّة من وشائج الاجتماع ومناعاته وأصبحتْ رهَن ثورةٍ عاتية تفكّك الأوصال ، وإذا كان الشيوعيون يريدون أن يمنعوا كسب إنسان فوقَ حاجته ، فإنهم بذلك يقتلونَ روح التنافس المشروع فى نفوسِ الآحاد ، فتصبحُ الكافّة سواسِيَةً فى الفاقة والعدم ، ولن يَمنع ذلك وجود حكومةٍ مسيطرة على الثروة العامة ، لأنّ قيام الحكومة مقام الأفراد يحُيلهم إلى آلاتٍ لا تجد الحافز إلى الإنتاج ، كما يُشيع الخوف والهلع حين يرى الفرد أصحابَ الأمر يبثّون حوله الأرصاد والعيون حذراً من تذمّره الداعى إلى الثورة ، ويصبح بعضُ الأمّة جواسيسَ على بعضها الآخر فيقع التنازع ، ويليه الخراب .

هذَا عن الأصل الأول ، أما الأصل الثانى وهو الهادف إلى محوِ طبقة الأغنياء لتتحسّنَ حالة الفقراء فباطل ، لأنّ الدهماء ليسوُا فقراءَ لأنّ بضعةَ رجالٍ من أصحاب الملايين قد احتكَرُوا الثروة ، بل لأنّ مقدار ما تُنتجهُ الأرضُ فى بيئتهم منِ المواد الغذائية لا يكفى دوُن سعى جاهد لاستِنْبات الزرع ، والبحثِ عن المعادن ،

وقد كتَب الأحرار من مفكّرِى الرُّوس أنفسِهم ما يؤيد ذلك فقال الأستاذ (نوفيكو) « إن المالَ الذى يراد تقسيمه غير كافٍ لحاجةِ الناس ، إذ لوْ صُودرت الأرباحُ الفردية وقُسّمت على الناس فِي الدولة الواحدة ، لما نالَ أحدٌ أكثر من ١٢٪ من دخلهِ الحالّى ، فالمليونير الأمريكى (بير مور مورجان) يحصل على ثلاثةٍ وثمانين مليونا من الفرنكات – مثلا – فى السنةِ الواحدة . فإنْ صُودر هذا الدخل وقُسّم على إخوانِه الأمريكيين ، نال الواحد منهم أقلّ من فرنك ! فهل يُغنى ذلك شيئاً فى رفع المستوى المادّى ! » .

ثم إنّ السيطرة الحكومية بَعد القضاءِ على ذوى الثراء تقْضِى أيضاً على عواطف التنافس فى الصدور ، وتشل ملكاتِ الطموح ، فتحرمُ مجموعَ الأمة من الجهود العظيمة فى إقامِة المشروعات النافعه ، وبذلك ينهار الوضع الاقتصادى وتجوع الأمة .

أقول ، وهذا ما حدَث فعلاً فى كل بلد شيوعى ، بزيادةِ خطرٍ آخر ، هو أنّ الرؤساء فى دُوَل الشيوعية جميعا ، لم يَصْدقُوا الناس فيما يدّعون ، إذ جمعوا لأنفسِهم من الأموال الطائلة ما سَرقوه سِرًّا دون جهد ، ثم عاشوا عيشةَ الترف البالغ فى قُصورٍ تُحاكى تَرَف الأباطرة الكبار ، وقد افتنَّ من يَقْدِرُ على النهب فى ابتلاع ما يصل إليه . وبذلكَ جاعتِ الأمم ، وثارتِ الجموع ، وسقطت الشيّوعيةُ دون رثاء .

فإذا انتقلَ الأستاذ وجدى إلى الأصل الثالث ، وهو استئصَالُ الدين من المجتمع باعتباره ألدّ الأعداء ، فإنّ الكاتب الكبير هنا يجولُ فى ميدانه الذّى خُلق لإحراز القصب السابق فى مبارياته ، إذ تهكّمَ ممن يقولون أنّ كل مجتمع طبقّى يتولّد فيه الدين تحتَ تأثيرِ النير الاقتصادى ، لأنّ الدين غريزّة توجد فى النفوس قبلَ أن يعرف أصحابُها نظامَ الطبقات ، فكيف يتولّدُ مِن هذا النظام ، والدّينُ لا يستمد سلطانَه من جُوع الجماعات ولا مِن وقوعهم تحتَ براثن القادة الظالمين ، بل يستمدّه من أشرفِ عواطف النفس ، وأكرمِ غرائز العقل وقد ثبت بالمشاهدة أنّ الإنسان إذا كانتْ قواه مستوعَبةً فى طلب القوت ، ضَعُفَ سلطانُ الدين عليه ، ولم يجِدْ وقتاً للنظر فى نفسه ومصيرها ، ولا للفكرِ وآدابه ، وكثيراً ما أدّاه شظفُ العيْش إلى الكفر الصريح ، وما ارتُكبت الجرائم ، إلّا حين يَخْفُت صوتُ الدين فى النفوس ،

والدينُ بعد ذلك مُفترىً عليه حين يُقال إنه يستبقى العادات البالية ، ويُحْيى النزعات الرجعية ، ويخلق شريعةَ العبودية ، ففى فرنسا وانجلترا وأمريكا لا يزال للدين صولتُه ورجالُه الذين يُباركون الرؤساء إذا تمسّكوا بالدين ، وما رأينا الدّين مانعاً هناك من تطور العلاقات بين الحكومات والشعوب ، ولا مِن تهذيب الصلات بين أصحاب الأموال والعمال حتى اعتبر العمل ورأس المال متساويين فى الحقوق !! واعترفت الحكومة بالنقابات العمالية ، وسمحت لكل مظلوم أن يلجأ إلى دور القضاء لينال حقه الممنوع ، وذلك كلُّه دون التنكر للدين ، أما الدين الإسلامى فقد أنقذ العرب بدءاً من ظلمات الجهالة ، ثم أنقذ العالم حين رفرفت رايته على الأمم التى اهتدت به ! وإذنْ فالدين باعث ارتقاء لا هبوط ! تلك نقاطٌ مركزةٌ مما بسطه الأستاذ ، وقد أثبتت الأيام صحة منحاه بما هو مشاهد للعيان .

— ٤ —

أخصّ ما كتبه الأستاذ وجدى عن المرأة المسلمة ببعض التفصيل ، لأن الكاتب الكبير قد تعهّد قضية المرأة المسلمة بالشرح والتوضيح منذُ أخرج الأستاذ الكبير قاسم أمين رحمه الله كتابيْه تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ، إذ كانَ أول من نقد المخالفَ من آرائه نقداً موضوعيا حازَ ارتياح المنصفين ، وأقولُ نقدا موضوعيا لأن بعض الغُلاة ممن واجهوا صاحبَ تحرير المرأة تركوا اللّباب المعترضَ عليه إلى السّباب والتهكم ، فضاعتْ نقداتهم جوار ما يتلبّسها من شطط لا تعرفه آدابُ المناظرة والبحث ، والعجيبُ أن الأستاذ وجدى رحمه الله قد قابل مثل هذا الهجوم المتعسّف حين بسطَ وجهة نظرة فى الأربعينيات بصدد حقّ المرأة فى الانتخاب ، إذ تهجم عليه مَن لم يعرف قدرَ نفسه ، قبلَ أن يعرف قدر الكاتب الكريم ، ولا أدْرى لماذا يُحاول من يدعّون الغيرة على الحقائق الإسلامية أن يُهاجموا كلَّ من خالفهم فى منحىً من مناحى التفكير ، وكأنّه عدّو حاقد ، لا أنّه مسلم صادق يحاربُ معهم فى جبهة واحدة هى جبهةُ الدفاع عن الإسلام ، وقد أمرنا الله أن نجادل أهل الكتاب بالتى هى أحسن ، فكيفَ نجادل من يتسنّمون الذروة فى قيادة الفكر الإسلامى مهاجمةَ العدو اللجوج ، وهل من حقائق الإسلام التى نتظاهر بالدفاع عنها أن نتطاول على ذوى القدمة السالفة فى مضمار البحث الجاد بلا هدى أو برهان ؟!

لقد كان كتاب « المرأة المسلمة » المنار الأوّل لمن يُريد رأى الإسلام فى قضية المرأة ، وكانَ الأستاذ وجدى من النّزاهة والإنصاف بحيثُ أنزلهُ معارضوه حينئذٍ منازل التقدير والإعجاب ، فقد أوضحَ أن تَلاحم الشرق بالغرب جعلَ بعض المتسرعين يروْن نقل عادات الغرب كما هى دون نظرٍ إلى واقع المجتمع الإسلامى وقال إنّنا نقلّد الغرب دون أن يوجد التناسب المطابق بين المقلِّد والمقلَّد ، لأنّ الباحث المدقق فى أحوالِنا الاجتماعية يجد أنّ حافظة الأمة الإسلامية لا تَتشابه فى كلّ وجه بحافظة الأمم الغربية التى تُدعى الآن إلى احتذائِها فتكونُ النّصيحةُ بالتقليد نصيحةً بالاستخذاء والتلاشى ، ثم أفاضَ الأستاذ في إيضاح الخلاف العضوى فى تكوين جسمى الرجل والمرأة ، كى يؤدّى كل منهما وظيفته فى الحياة وفق ما يناسب تركيبه العضوى ، وهو كلامٌ أصبح الآن من البدهيات ولكنّه فى العقدِ الأخير من القرن التاسع عشر كان داعياً للانتباه ، ثم أوضَح آراء مَن ينادون بالتزام المرأة الأوربية وظيفتها الخاصّة بإدارة المنزل وتربية الأولاد ، وهمْ من أعلامِ الفكر فى بلادهم ، فلماذا نصرُّ على تجاهل آرائهم ، ونميلُ إلى آراء المتحللين من القيود ، فهل كتب علينا نحن الشرقيين أن نعتمد على المتطرفين وحدهم لنأتى بالباهر الغريب .

أما ضرورةُ الحياة التى يتعلل بها من يسمون أنفسهم أنصار المرأة ، فقد ألزمت الشريعة الإسلامية مَحارمها بكلّ ما تطلبّه من النفقات ، كما ألزمتْ بيت المال أن يقوم بنفقاتها إذا فَقدتِ العائلَ المعين ، وما يبدو من العِلَل المزمنة لَدَيْنا فى مسائل الطلاق وتعدد الزوجات والحجاب ، هو علّةٌ لدى من لا يَعرفون حقائق هذه الأشياء ، أما مَن يدرس الشريعَة دراسةً واضحة ، فسيرى أن كلّ حكمٍ فقهي أجمعَ عليه الأئمة هو طريقُ صلاحِها الوحيد ، أما سجنُ المرأة المزعوم فهو مجردُ ادعاءٍ باطل ، فإذا كانتْ إقامَة المرأة فى منزلها لتشغل وقتها بحاجات البيت وتربية الأطفال ، سِجْناً لها يَحبسُ حريتها الواجبة ، فإنّ لزوم التاجر لمتجره والزارع لحقْله والصانع لمصنعه يعتبر سجناً لهؤلاء ، إذ يشتغلونَ سحابة يومهم فيما يَرتزقون منه ، دون أن يشعروا بقيد ! فكيفَ يكون اشتغال المرأة بواجب بيتها سجنا ! وهو أكثر حرية لها من مصنع الصانع ، ومتجر التاجر ، لأنهّا وحدها ربة البيت ، ولا كذلك العاملُ فى المصنع ، والمدرس فى المدرسة ، وكلُّ من يزاول عمله المعاشيّ فى مجتمع عام .

وممّا يدعُو إلى الارتياحِ أنّ كثيرا ممّن كانوا يعارضون الأستاذ فريد وجدى فى اتجاهِه ، قد أطالُوا النظر فى كتابه إطالة الفحص الدارس ، حتّى اقتنعُوا بأفكاره ، وفيهمْ من ذوى الصدارة الفكرية من يشار إليهم بالبنان ، فقد ألقى الأديب الكبير الدكتور منصور فهمى كلمةً ضافية فى الأربعينات تحت عنوان (نساؤنا بين التقليد والتجديد) [1] ، تحدّث فيها عن قاسم أمين وما طرأ من فهمٍ سّيىء لآرائه ، ثم اتجهَ وجهة الأستاذ فريد وجدى فسار مع أفكارِه سَيْرَ المُحَبِّذ الموافق ، واستشهدَ بنصوصٍ من كتاب (المرأة المسلمة) وأنكر ما أنكرهُ الأستاذ وجدى من التبذّل وفساد الذوق ومحاولة التغرير بالمرأة حين تُخدع بما يقال عن الاختلاط فى المصنع والمتجر مزاحمةً بالمنكب فى نضال غير متكافىء قائلا بصدد ذلك :

« وقد صدق الأستاذ وجدى فيما كتب ، فمُحاكَاتُنا للغرب ، تدفعُ نساءَنا الحديثاتِ فى كلّ ميادين العمل الاجتماعى ويُغَرَّر بهنّ لِيسرْنَ فى هذا السبيل ، من غير قيد ولا حذر ، وقد توقّع الكثيرُ من علماء الاجتماع سوء عاقبة هذا التمادِى فى التغرير بالمرأة ، وتوريط المجتمع فى كوارثَ خلقية واقتصادية حتّى إن « أوجست كومت » وهو رأس من رءوسِ فلاسفة الغربيّن كان يَرى من واجب الهيئة الاجتماعية أن تَضْمنَ للنساء حياةً ناعمة مريحة إذا أعوزهُنّ من يكفلهنّ من الأقارب والأزواج ، ليتجهْن وجهتهنّ فيما خُلقن لَهُ من إسعاد الأسرة ودعم أساسها ، وهو ما يساير تعاليم الإسلام .

وعلى صفحاتِ مجلة الأزهر ترددتْ آراء الأستاذ فى قضية المرأة ، لمناسباتٍ شتى ، لأنّ المُطالبات بما يُسمّى حقوق المرأة يجدْن من تشجيع الصّحافة ما يُرضينَ به فضولهنّ من نشر الآراء المترددة فى المحيط الاجتماعى منذ نادى قاسم أمين بدعوته ، وأكثرهُن لم يَقْرأْنَ ما قال قاسم أمين ، بلْ لا يُطِقْنَ أن يَصْبِرْن على دراسة بحثٍ منهجى ، وقد تركنَ منازلهنّ للمربيات والخادمات . وحَرَصْنَ على الاجتماعات المتلألئة ، ليتردّد لَهُنّ صدىً بين الناس ، وفيهنّ من تَزوجتْ ثم طُلّقت ، فهى بِسيرتِها لا تصلحُ أن تكونَ قُدوةً لبنات جنسها ، ولكنَّ الصحافة تُرحب ، والصور المتلألئة تظهر ،

---

(١) مجلة الرسالة : العدد ٤٠٦ فى ١٤ ابريل ١٩٤١ م .

والذكر يذيع ، وهذا كلُّ شيء ، بل خاتِمةُ كلّ شيء يبتغين ! دَأَبَ الأستاذ فريد وجدى على تعقّب ما يعنّ من آراء الشاذّات والشاذّين ، وفيهمْ من ذهب إلى أنّ الإسلام يُحرّم على المرأة أن تتعلّم ، ويُؤثر أن تظلّ جاهلة ، ففسحَ المجالَ للكاتب الكبير أن يردّد ما قررَّهُ من قبل بتعبير آخر ، فأفرد بحثاً تحت عنوان (هل للمرأة أن تتعلم العلوم العالية) قال فيه إن الإسلامَ لم يضع حداً لنشاط المرأة العقلى فأباحَ لها أن تتوسّع فى دراسة العلوم ما أمكنَها التوسع ، ولم يمنعها أن تنشرَ علمها فى الناس ويأخذ الرجالُ عنها ، وضربَ المثل بنماذج مشتهرة من فُضليات الصحابة ومن تَلَتْهُنّ من نساء الصدر الأول ، وفرّق بَين مُشاركة المرأة الرجل فى دراسة العلم وبَيْن مشاركتها إياه فى أعباء العمل الشّاق بالمصنع والمنجم ، إذ أنّ هذا العمل المرهق يَحول دونَ أداءِ رسالتها الطبيعية فى الحمل والإنجاب والتربية ، وإنّ أكثر ما نشكو منه فى بناء الجيل الصاعد انصرافَ الأمّهات عن تعهد أبنائهن إلى وظائف مظهرية يَذهب أجُرها أو أكثرُه فى الذى تنفقهُ المرأة على الملبس والمظهر وأجر الحاضنة ونفقات الرّواح والمجيء ، بمعنَى أن النفعَ المادى الذى ينشدُه هؤلاء لا يُرضى الحاجة المطمئنة ، ويظلّ الزوج صاحبَ العطاء ، هذَا إلى ابتذال المرأة واكتسابها بعضَ أخلاقِ الرجل من الخشونة والمجادلة ، بحيث لا تصبح حاجةً من حاجات النفس الظامئة إلى الحديث المؤنس والرّقة الحانية ، بل تكونُ شريكاً يتباهى بعمله وأجره ، ويُعْلن استقلالَه التام فى تكبّر لا تعرفهُ الأُسَر الرّاضية ، ولا البيوتُ السعيدة من قبل ، وقد فَطنت أوربا إلى افتقادِ السعادة المنزلية ، وحرمان الأطفال من بَسمات العطف ، وحَنان الصدر ، فنادَى أكثر المُصلحين برجوعِ المرأة إلى وكرها ، وأخذوا يضعون حدًّا لعملها الخارجى ، فاستجَاب لهم من لمسوا الضياع من الأزواج ، ولَمَسْنَ الإرهاق من الزوجات ، وما شكتْ منه أوربا لن نلتفتَ إليه حتى نَمْرضَ به ونَعْتلّ ثم نبحث عن الدواء .

وثانيةٌ أطالتْ فيها الصحف ، ورأتْ سيّداتُ الصالون أن يسهمْن فى تأريثها ، تلك هى مسألةُ تعدّد الزوجة دون الاقتصارِ على واحدة ، وقد أشبَع الأستاذ وجهةَ النظر الإسلامية تحليلاً وتعليلا بما لا مزيد عليه ، ثم جابهه بعضُ المشاهير من رجال القانون لدينا باعتراضاتٍ ظنّها مقنعة ملزمة ، ولكنّ الكاتب الكبر عَصَف بها عصْفَ الريّح بالرمال ، فأوضحَ أن الإسلامَ حين أقرّ مبدأ التعدّد لمْ يُساير الشهوات الخسيسة

كما يتوهّم المعترض ، بل ليحصرَ مُيول ذوى القوة الجنسية فى نطاق لا يتعدّونه ، إذْ فى الرجال من جُبلوا على الطمعِ فى غير واحدة ، ولا بدّ أن يُحققوا رغَباتهم عن طريق الانحراف ، فليكن التحقيق إذنْ من بابٍ مشروع ، وقد حَظَرتْ أوربا تعدّد الزوجة ، ولكنّها أباحت العلاقة الآثمة بين الجنسيْن ، بل بيْن آحاد الجنس الواحد إذ اعترفت بعضُ الدول باتصال الرجل بالرجل ، وصدَر بذلك قانونٌ لا أدرى كيف يُسنّ فى مجتمعٍ يدّعِى قيادة المدنية بين الشعوب ! فانحطّ الذوق فى هذه المجتمعات انحطاطاً لا مثيل له ، ثم إنّ الذين يحرّمون الزوجة الثانية يُبيحون للزوج أن تكونَ له خليلةٌ وخليلاتٌ ، ولو سألْنَا أيَّة زوجةٍ عاقلة عن تَعدّد الزوجة والمخادنة ، لآثرتْ أن يتَزوجَ الرجلُ عليها زوجةً ثانية بدل أن يُخادن اثْنَتيْن وثلاثاً دون عائق ، فيبدّدَ عليهنّ ماله وصحّته ووقته ، ويصبحَ خالِعاً العذار ، جارياً فى أعقابِ شهواته ، ينفق على الخليلات ، ويضنّ على الحليلة وأولادها ، ولنْ يرجع إليها إلّا إذا أقْعَده المرض ، أو نضبت الثروة ، وهو رجوعٌ لاصلاح معه ، لأن الجرحَ قد اندمل على صديد ! فى مثلِ هذه المعانى جالَ قلم الأستاذ فسطر أكثر من عشر صفحات لا تجد بها غير المقنع السديد ..

هذه إشاراتٌ سريعة تدعُو قارئها أن يَرجع للأصول التّى كتبها الأستاذ باسطا متدفقاً ، وأنا أتقدّمُ بها لتكونَ عاملَ شوقٍ للدارس ، وباعثَ همةٍ تَنْفُضُ عنه غُبار القناعة الراضية بالتلخيص والاكتناز ، وقد أصبحت هذه الأصولُ مُيَسَّرة حين قُمت بجمعها فى كتاب خاص ، يجدُه القارئ تحت يده متى شاء فيقف على ثمرات حقل خصيب .

د . محمد رجب البيومى

ذكريات أدبيّة عن :

العلّامة محمد فريد وجدى

مؤلف دائرة معارف القرن العشرين

(بقلم الدكتور محمد رجب البيومى)

قضى ستين عاماً من عمره المديد لم يترك قلمه يوما واحدا إلّا لمرض ، وأبقى من الآثار العلميّة ما لا تقدر على تأليفه لجنةٌ مختارة من الأفذاذ ، وكان آية الآيات فى أدب الحوار ، إذ أبدى من سعة الصدر ، ورحابة النفس ، وجمال التواضع ما يعدّ غريبا فى بابه ، لأن بعْض مناوئيه كان يجادله بالتى هى أقبح ، فلا يجد غير الصفح العاقل ، والتغاضى البصير ، بل يجد الثناء على بعض ما اهتدى إليه خصمه مِنْ حقائق كانت غائبةً عن المنقود ، ولا أُرسل هذا الكلام إرسالا دون دليل ، فلدىّ الشواهد .

لقد جَادلَ المغفور له السيد محمد رشيد رضا فى بعضِ المسائل الدينية ، وكانت فى صاحب المنار رحمه الله حدّةٌ تدفعه إلى التعالى والاستفزاز دون موجب ، وقد تورّطَ فرمى مؤلف دائرة المعارف ومفسّر كتاب الله بالجهل ، وقرأ فريد وجدى شطط مُناظره ، فأغْضى عنه ، وأخذ يناقشه مناقشةَ الصديق للصديق ، وأذكرُ أنّى حادثته فيما كان من أمره مع السيد رشيد رضا ، فقال مبتسما : إنّ كلينْا يحارب فى جبهةٍ واحدة ، هى الجبهة الإسلامية ، وإذا كنّا نُحاوِل الرفق مع خصوم الإسلام لنستدرجهم إلى سماع ما نقول – فإنّ الرفق بأصحاب الاتجاه الواحد أدعى وألزم . وهى وجهة عاقلة لا تجد من يلتزمها غير الآحاد .

كما أذكر أنّ الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله ، قد هَاجم الأستاذ محمد فريد وجدى فى كتاب (أوقات الفراغ) هجوماً قاسيا ، وعاوَد الكرة على صفحاتِ مجلة السياسة الأسبوعية ، فردَّ الأستاذ فى أدب ملتَزم ، ثم أخرجَ الدكتور هيكل كتاب (حياة محمد) فقابلهُ الأستاذ محمد فريد وجدى بإطراء ضافٍ ممتد ، وقال إنه من الصفحات الرائعة التى سيكتب لها الخلود ، وللرجل فى هذه المثاليات نماذج

رائعة لا يرتقى إلى مستواها سواه .

(أول تعارف)

كنتُ طالبا بمعهد الزقازيق الثانوى ، فكتبتُ مقالاً متواضعاً عن كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل يدعوه للإسلام ، سارِداً ما روته كتب التاريخ عن أثر الكتاب فى نفسيّة الامبراطور الرومانى ، وعن اجتماعه بأبى سفيان وسهيل بن عمرو وسؤاله عن نبىّ العرب ، ثم اجتماعه بالبطارقة ليناقشهم فى أمر النبى الجديد ، ثم أرسلتُ المقال إلى مجلة الأزهر التّى يرأس تحريرها الأستاذ محمد فريد وجدى ، وكانَ ذلك تسرّعاً مِن طالب ناشىء يبعثُ بمقاله المبتدئ إلى أكبر مجلّة إسلامية فى ذلك العهد ، ففوجئتُ بعد أسبوعيْن بمظروف كبير ، يأتى إلىّ بالبريد ، ففضضتُه لأجدَ مقالى مع ردٍّ توجيهىّ من الأستاذ وجدى ، خلاصتُه أنّه سرَّ أكبر السرور باتّجاه طالب ناشيء إلى الكتابة فى التاريخ النبوى ، وإنه يُباركُ هذا الاتجاه ويُحَبّذه ، ولكنه يلفتنى إلى شيءٍ هام ، هو أنّ المقال الإسلامىّ الجيّد ليسَ إعادةً للأحداث المدونّة بأسلوب مختلف الألفاظ ، ولكنَّ الواجب أن يكون لِلكاتب رأيه الخاص ، وتَعْليقه الشخصى على الوقائع ، وتحليلهُ الدقيق للمواقف الغامضة ، وحينئذٍ يُضيف الجديد إلى القديم المتعارف ، ثم رجانى فى تواضعٍ أنْ أُحاول الاستفادة مما قال ، وذلك لا يتأتّى إلا بدوام المطالعةِ ، والصبر على القراءة المفيدة ، حتى تتكوَّنَ لدىّ ملكةُ الكتابة على نحو كريم .

قرأتُ الخطاب عدّة مرات ، وكان أولَ خطاب يصلنى من كاتبٍ مرموق يحتلُّ الصدارة بيْن ذوى الأقلام ، فأعجبتُ به أشد إعجاب ، ولكن حافزاً دافعاً حثّنِى على أنْ أردّ عليه فى إجلال وإكبار ، فكتبتُ أقول له إنى شاكرٌ توجيهه السديد ، وأنه سيظلُّ مصباحا أستضيء به ، ولكنّى مع ذلك أُصارحُه بهاجسٍ يهجس فى نفسى ، هو أنّى أقرأُ لكثيرٍ من العلماء مقالاتٍ تُعيد التاريخ دون إضافة ، ويُنشُر بعضها بمجلة الأزهر التى يُشرفُ عليها الأستاذ الكبير ، فما تفسيرُ ذلك ؟! وانتظرتُ قليلاً حتى سعدتُ بردٍّ للأستاذ قال فيه : إنه ارتاحَ كثيراً لاستجابتى لتوجيهه ، وسأجْنى ثمرةً يانعةً بحرصى على القراءة النافعة ، أمّا المقالاتُ التى أشرتُ إليها ، فهى فى مُستوىً ضعيف لا محالة ، ولكنّ كُتّابَها من كبار الشيوخ ، ولن يخْضَعُوا لتوجيهٍ

من مثله ، والصحيفةُ صحيفةُ الأزهر ، وشيوخُه فى مقدمة كتّابها ، لذلك فهوَ يتّجهُ بالتوجيه إلى أمثالى من الطلاب ، معتقداً أنهم يُبشّرون بأملٍ مرتقب إن شاء الله !

قرأت الردَّ فاقتنعتُ به ، وأحَسْست أن الكاتب الكبير أصبحَ قريباً من نفسى ، بل أحسستُ أنّه أستاذى الذى أتلقّى عليه العلم ، وقد سارعتُ إلى جمع مؤلفاته وأخذتُ أقرؤها بنشوة لا أجدها عند قراءتى لغيره .

(زميل كريم)

كان لى زميل من طلاب المعهد الثانوى هو الأديب (محمد المتولى النظامى) رحمه الله ، وقد اتكأ على جَيْبه ومالِ أبيه ، فأصدَر كتاباً صغيرا ، تحت عنوان (خواطر ولمحات) وبعث به إلى كُبريات الصحف والمجلّات من أمثال الأهرام والبلاغ والمصرى والهلال والرسالة والثقافة وغيرها راجياً أن تَنْشر إحدى هذه الصحف سطورا مشجعّةً عن الكتاب ، فلم يجدْ أدنَى أثرٍ يدلّ على كتابهِ ، مع أنّه أرسلَ الكتابَ بالبريد المسجل ، وقد طلب من رئيس التحرير أن يتكرَّم بالتّنويه عن كتابه ، أو نَقْده ، فعزّ عليه أن يُهمل هذا الإهْمال ، وجاءنى شاكيا متألّمًا ، فسألتُه : هل أرسلت نسخةً إلى مجلة الأزهر فأجاب بالنّفى ، قلتُ : سارعْ بإرسال نسخة باسم الأستاذ محمد فريد وجدى فقد يُعقّب عليها .

ثم كانت المفاجأة حين صدرَ العدد الجديد من مجلّة الأزهر (ربيع الثانى ١٣٦٢) وبه صفحة كاملةٌ من القطع الكبير تتحدثُ عن كتاب الطالب الزميل ، وقد بدأها الأستاذ وجدى بقوله :

« تنبتُ فى حُقول الجامعة الأزهرية يراعاتٌ من الطراز الممتاز ستلعبُ دوراً بعيد الشأن ، فى إعادة مجده ، وأنّ هذه اليراعات ليترشّح منها ، ولما تبلغ غايةَ نموها ، ما ينمُّ عما ستقوم به من رسالات علمية وأدّبية نرى المجتمع الإسلامى فى أشدّ حاجة إليها اليوم ، وبين يدَىّ الساعة رسالةٌ تحت عنوان (خواطر ولمحات) بقلم (محمد المتولى النظامى) لا أبالغ إذا قلتُ إنها بدايةٌ تبشر بمستقبل بعيد الأثر فى تبليغ رسالة الأزهر » إلى آخر ما جاء فى الصفحة الكاملة .

وقد سُرّ الزميل سرور المندهش الفخور ، وسافر إلى القاهرة كى يقابل الأستاذ شاكرا مقدّرا ، وكانَ ممّا سمعه منه ، إنّه يرحبّ بإنتاج الشباب ، ويقدّمه فى التعريف على إنتاج الشيوخ ، لأنّ الشاب محتاجٌ إلى من يشدّ أزره كى يواصل النضال ، وإنّه يقاسى مقاساةً أليمةً من أساتذةٍ كبار لا يكتبون الجيد ، ثم يطلبون أن تخصّهم مجلّة الأزهر بما تخصّ به النّابغين من الشباب ، وقد يضطّر إلى ترضيتهِمْ بسطور ضيئلة ، ولكنه يفسح المجال بإخلاص واهتمام للشباب الناهض !

هذا ما قاله الأستاذ ، وفيه عبرة وتوجيه وانتقاد .

(إلى القاهرة)

انتقلتُ إلى القاهرة طالباً بكلية اللّغة العربية بالأزهر الشريف ، فكان لقاءُ الأستاذ وجدى أوّلَ أمنية أحقّقها ، فتقدمت إليه مذكّرا بما كان أرسلَه إلىّ من رسائل ، فهشّ للقائى ، وشجّعنى أن أزورَه كثيرا كثيرا ، فحدثته عن مقالاتٍ قرأتها بقلمه وحاولتُ احتذاءها ، وأهدانى طائفةً من كتبه القيمّة ، وقد حدثتْ نادرة خاصةٌ به تعجبت لها ، إذ كنتُ أزور قريةً ريفيّة ، وكان عامل البريد بها مسيحيًا ذا ثقافة ، فجمعَنا مجلسٌ علمىّ عرفت من خِلاله أن الأستاذ محمد فريد وجدى راسله مراسلاتٍ علمية بلغتْ عشر رسالات ، وكلُّ رسالةٍ تزيد على ست صفحات كبار ، فيؤلّف مجموعها كتاباً قيمًا ، فتعجبتُ كثيرا ، وقلتُ فى نفسى لماذا لم ينشر الأستاذُ رسائله العشر فى صحِيفةٍ سيّارة أو يجمعها فى كتاب مطبوع لينتفعَ الناس جميعا بثماره الفكرية ، بدلَ أن يخصّ بها إنسانًا واحدا فى قرية صغيرة ، وصَمّمتُ على أنْ أسألَهُ عما صنع ، فلمّا جئتُ لزيارته قصصتُ عليه ما سمعت ، وماَ دار بخلدى ، فنظر إلىّ باسماً ، ثم قال فى هدوء : لقد كتبتُ مقالاً عن الإسلام والمسيحيّة فى مجلة الأزهر ، فأرسل إلىّ هذا الرجل ردًّا مليئا بالأفكار الخاطئة ، وخِفْتُ أن أنشره معقّبا بدحضهِ ، فيُحدثُ النشرُ بلبلةً لدى إخواننا المسيحين لا أرتضيها ، ثم خشيت أن أهمله فيظنّ حديثه صحيحا وأنى أهملته عن غرض ، فرأيتُ أن أفنّد آراءه فى كتابٍ خاص بعثتُ به إليه ، ولكنهُ ردّ فى إسهاب ، وانتقل من موضوع إلى موضوع ، فدفعنى ضميرى إلى الردّ عليه ، وكررّ التعقيب فكرّرت الرد آملا أن ينتهى النقاش عند حدّ ، حتى إذا نَفد صبرى اعتذرتُ بعدَ عشر رسائل ! ثم قال فى تواضع :

إنّ الفكر أمانة ، وصاحبُ القلم ليس مخيّراً دائما فيما يكتب ، ولكنه يُفاجأ أحيانا بما لا سبيل إلى السكوت عنه ، فيحمل يراعه كما يحمل المجاهد فى حومة القتال سلاحه ، والله عليم بذات الصدور .

نزلتْ كلمات الأستاذ على نفسى نزول المطر على الأرض الجدباء ، فأحدثتْ فى خواطرى اهتزازاً ناميا نضيرا بما يحملُ من ثمر وعطر . وجعلتُ أفكّر فى قوله : إن الفكر أمانة ، وأن صاحبَ القلم يفاجأ أحيانا بما لا سبيَل إلى السكوت عنه فأسأل نفسى : أكُلُّ صاحب قلَمٍ يصنع ما يصنع الأستاذ ؟ ثم أمعن فى الموضوع فأسأل : أهناك من أصحاب الأقلام خمسة أو أربعة يصنعون ما يصَنع الأستاذ ؟ ولَمْ آيس ، لأنّى أعلم أن الإسلام الصحيح إذا خامر نفساً مطمئنّة ارتفع بها إلى أرفع المستويات فأتتْ بما يعدّ شذوذا لدى العامة وهو عند صاحبه قياسىّ لا شذوذ فيه .

وعجيبة أخرى ، فإنّ الأستاذ محمد فريد وجدى عُرِف برأيه المعتدل فيما يُسمَّى بتحرير المرأة ، وقد عاصَر قضيةَ التحرير هذه منذ كتب الأستاذ قاسم أمين كتابه الذائع ، فردَّ عليه حينئذ بكتاب شهير تحت عنوان (المرأة المسلمة) كان المورد الأوّل لمنْ يريد رأىَ الإسلام فى هذه القضيَة ذات الضجيج الصاخب ، ثم وَاصَل الكاتبُ الكبير بحوثه عن المرأة فى الإسلام ، وأبانَ وجهة الشريعة فى مسائل الزواج والأسرة وتعدد الزوجات وتعليم المرأة والطلاق بما لا مزيد عليه ، وقد كتب مقالاً فى بعض المناسبات لم يُرضِ أحدَ الوعّاظ ممّن لا يبلغُون مرتبة التلاميذ بالنسبة للأستاذ ، فكتبَ مقالا تعدّىَ فيه القول إلى القائل فَوصفَه بما هو مبرأٌ منه ، وتهوّرَ فى كلماتٍ ما كان ينبغى أن تَصدر من واعظ دينى يحبُّ أن يقف عند قول الله : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إنّ ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ ، ونشر الواعظُ مقاله فى صحيفة متواضعة تنتشر فى حيّز محدود ، ولكنّ الأستاذ وجدى قد اطّلعَ عليها ، فأفردَ للرد عليها بحثاً ضافيا فى عدة صفحات ، ولم يتحدث عما وُجّه إليه من انتقاصٍ لا مبرّر له ، بل وَاجَه الأفكار المتنازع عليها بما يؤيّد وجهة نظره بجلاء ، وكان على الواعظ أن يسكت أو أن يُجيب بما علّمه الأستاذ من أدب ، ولكنه ردّ فى تطاول ، وعرفتُ ما كانَ ، فاتصلتُ بالأستاذ وجدى لأقول له : « إن الردّ عَلى

أمثال هذا المتشنّج مما يزيدُ من غروره » ، ولكنّه ابتسم قائلا : ليست القضية قضيته ولا قضيتى ، ولكنها قضيةُ القارئ البصير ، وهذا القارئ سيتلُو الرأى ونقيضَه ثم يجنح إلى ما يستصوب ، فالردّ واجب ، ومحاولةُ تجاهله تأييدٌ للخطأ ، وهزيمة للصواب !

(مقالات شتي)

ظل الأستاذ وجدى قرابة عشرين عاما رئيساً لتحرير مجلة الأزهر ، وكان له فى كل عدد عدّة مقالات بحيث لو جُمعت آثاره فى مجلة الأزهر وحدها لكوّنت أكثر من عشرة مجلدات ، تتحدثُ عن أدق المشكلات الاجتماعية وتردُّ أعتَى التيارات الإلحاديّة ، وتحلّل المبادئ الإنسانية الرفيعة للدين الإسلامى الحنيف ، وقد وجدت نفراً من أدعياء البحث يسطون على كثير من أفكارها فى غير حياء ، ولم يُشيروا إلى المصدر المنهوب أدْنَى إشارة ، فقُمتُ بجمع ما كتبه تحت عنوان (مهمة الإسلام فى العالم) وهو أربعة وعشرون بحثاً تُوضّح رسالة الإسلام فى إنقاذ البشرية ، وإخراجها من ظلماتها الدامسة إلى مشارق النور ، ثم تفضلت اللجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف بطبع هذه البحوث الجليلة فى كتاب خاص أنيق المظهر ، جيّد الطبع ، وقد صُدِّر بكلمة ممتازة لأخى الأستاذ الدكتور عبد الودود شلبى أمين اللجنة العليا الذى اهتمّ بنشر الكتاب على أوسع نطاق ، وقد غصّ به الذين سرقوا أفكاره ، ناسين أن الحق حق ، وأنه لا يعدم أنصاره ، مهما غمره النسيان ، ولا تزالُ بين بحوث الأستاذ فى مجلدات مجلة الأزهر عدة كتبٍ قيّمة منها الفصول الرائعة التى كتبها تحت عنوان (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة) [1] فى أكثر من أربعين فصلا ، ومنها ما كتبه تحت عنوان (الروح الإسلامية ومدى تأثيرها فى النفوس) ومنها ما كتبه تحت عنوان (ليس من هنا نبدأ) ومنها ما كتبه تحت عنوان (فى معترك الفلسفيين) ومجلدات المجلّة محفوظة بمكتبات القاهرة والمعاهد الدينيّة ، فهل تجد هذه اللآلىء المتناثرة نظاما يجمعها فى نسق متّصل ، ليسهل تداولها بين القارئين .

---

(١) تفضلت الدار المصرية اللبنانية للنشر ، بطبع هذه الفصول الرائعة فى كتاب خاص ، صادف ارتياح أهل العلم ، وأنا بسبيل إعداد كتب أخرى للأستاذ وجدى آملا أن ترى النور قريبا إن شاء الله .

إيثار وإنصاف

تلقّى الأستاذ الإمام محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر سؤالاً عن الشرك وعقوبته الأخروية ، وقد اشتط السائل حين قرّر أن الإسلام بالَغَ مبالغةً كبرى فى عقوبة الشرك ، إذ جعله دونَ الذنوب جُرما غير مغفور ، إذ يقول الله عز وجل فى كتابه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلا بَعِيدًا ﴾ (١) . وتطرّق السائل إلى تعسُّفات ظنّية لا تتصّل إلى اليقين بسبب ، فأحال الأستاذ الإمام هذا السؤالَ إلى الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى وإلى الأستاذ العلامة محمد فريد وجدى ، ليكتب كل منهما ردّا شافياً من وجهة نظره ، وكأنّى بالشيخ الأكبر ، وقد رأى الأستاذيْن مع اشتراكهما فى جبهةٍ واحدة وهى جبهة الدفاع المخلصِ عن الإسلام يفترقانِ فى الثقافة العلمية افتراقاً يفسح مجالا لوجهتى نظرٍ تتباعد وتتقارب ، وهذا ما كان إذ نَحا الأستاذ الدجوى مَنْحى يعتمد فى أكثره على الأدلة النقليّة مستطرداً إلى أمور تمتّ إلى الموضوع من بعيد ، وقد جاءتْ لأدْنى مناسبة كما يقول الأزهريون . أما الأستاذ وجدى فقد استعان بمقرّرات العلم الحديثِ ليثبتَ أنّ الدين فطرىّ ، وأنّ الشّرك نكسةٌ طارئة كان زوالها محتّما لدى مَن يُقَدِّرون الكرامة الإنسانية ، وقد نَقلَ عن أئمة العلم الاجتماعى فى أُوربّا ، ما يدلُّ على أنّ البشرية كانتْ موحدة فى نشأتها الأولى ، إذ عَبدَت الله وحده مهتديةً بفطرتها الخالصة ، حتّى طَرأ مِن الزلل ما أدّى إلى الشّرك ، كما تابَع آثارَ الانحطاطِ الإنسانى لدى الهمجيّين من الوثنيّين فى بلادٍ مختلفة شرقا وغربا ، وظهرَ مقالاَ الأستاذيْن الدجوى ووجدى متجاوريْن فى عدد واحد ، وقد شاءَ بعض المتحمّسين لمقال الأستاذ وجدى أن يبالغَ فى الثناء عليه مُعقّبا على مقال الأستاذ الدجوى بما يُنبىء عن الاستخفافِ لا التقدير ، وكأنّه كان يريد استمالة الأستاذ بما يقول ، ولكنَّ العلامَة الأصيل ، قاطَع المتحدّث فى أدبٍ . وقالَ إنّه استفادَ من مقال الشيخ الكبير ما أضافَ الجديد إلى رأيه ، وأنه نَشَرهُ قبلَ مقاله ، اهتماماًبه ،

---

(١) سورة النساء : ١١٦ .

واحتفالاً بمَا أفاَض به الرجل الحجّةُ من خواطر تمسُّ الوجدان المسلم ، وترفع من مستواه ، ورجَا الناقدَ أن يعود إلى مقالِ الدجوىّ مرّة ثانيةً ، وألّا يكتفى بالنظرة الأولى ، فتململَ المتكلّم دون أن ينطق ، ثم آثر الانسحاب ، فخرجَ بعد مَدىً قصير .

وشاءَ بعض الحاضرين أن ينتقصَ الناقد بعد خروجه ، ولكنَّ الأستاذ وجدى قاَل فى هُدوء : من يَدْرِى لعلّه كان يعتقد صحّة ما يقول . وقد هَديتُه إلى ما غابَ عنْه ، ومن فضله أنْ قَرأَ ووازن ، فهو خيرٌ ممّن لم يقرأ ولم يفكّر ، وأحبّ أن تكونَ مجالس العلم موضوّعيةً لا ذاتية ، فهذا أولَى بكرامتنا .. سمعتُ ذلك كلَّه فتلقّيتُ درساً من دُروس الأخلاق .

(نظرة إمام كبير)

مَاتَ صاحب جريدة الأهرام جبرائيل تقلا باشا فأفردَ الأستاذ وجدى صحيفةً من مجلة الأزهر للثناء عليه بعد رحيله ، ولكنَّ بعض الّذين لا يفهمون سماحة الإسلام عَدُّوا ذلك موضعَ نقدٍ لا يجوز ، وسارعُوا إلى الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر حينئذٍ يقولُون فى صخب : إنّ بعض الكبار من علماء الأزهر ينتقلون إلى رضوان الله فلا يخصّهم الأستاذ وجدى بنعْيٍ ضافٍ كما فعل مع صاحب الأهرام ، فابتسمَ الشيخ الأكبر وقالَ لمحاوره : أَمَعَكَ مقالُ الأستاذ وجدى ؟ قال : نعم . قال : سلمّ فاقرأ ، فأخَذ الشيخ يتْلُو المقال منفعلاً ، وكان الشيخ الأكبر قد قرأه من قبل ، حتّى إذا بلغ القارئ منتصف القول وهو فى قمّة انفعاله ، قاَل له الشيخ سأقرأ أنا ، ثم أخذَ المجلّة ليتلُو فى جمالِ نبرة ، وحُسن إلقاء ، قولَ الأستاذ وجدى :

« إنّ الأزهر ومجلّته لتشاركُ الأمّة فى أساها ، وتذكُر من فضائل الفقيد الكبير ما كانَ يُقابلُ به بحوثَ حضرات العلماء من الاحترام ، ويُحلّها فى أرفع مكانةٍ من الأهرام ، ولطالَما نشرَ مقالات فى موضوعاتٍ علمية بحتةً كان أولى بها المجلّات ، ولكنّه كان يُؤثر أن يكونَ عوناً للأزهر فى أداء رسالته ، وفى عهدِه الجديد ، ومما يدلّ على عنايته بهذه الناحية ، أنّه عندما ثارَ جدالٌ بين القائلين بجواز ترجمة القرآن والذّاهبين إلى تحريمها ، وانتصَر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى للقائلين بالجواز ، نَشرَ الأهرام بحثَه فى عدد واحد على طوله ،

ولم يكُنْ فضيلته شيخاً للأزهر إذ ذاك ، فهذه النزعةُ الشريفة مضافةً إلى الكثير من غيرها لا يصحّ أن تُترك دون تقدير وإعجاب فلا غروَ أنْ عُدّتْ خسارةُ الآراء الحكيمة بموته فادحةً ، أحسنَ الله عزاء أسرته ، وجعل من نجله خلفا جديراً بسلفه العظيم » .

ثم قال الأستاذ متسائلا : أفهمتُم مرمى الجملة الأخيرة !؟ إن الأستاذَ وجدى يعْرفُ أن الأهرام أقوىَ صحف العالم العربيّ ، وأوسعُها انتشاراً ، ويخاف أن تتخلّى عن طريقة صاحبها الراحل فى تشجيع المباحث الإسلامية ، فأشارَ إلى الخلفِ باحتذاء السلف ! فلو لم يكنْ له فى مِقاله غيرُ هذا التوجيه لكانَ جديراً بالثناء لا بالانتقاد !.

تراجَع المعترض قليلاً ثم سأل : ولماذَا لا يكتبُ الأستاذ وجدى عن الراحلين من العلماء الأزهريّين كما كتب عن صاحبِ الأهرام ؟

فردّ الشيخ يقول : مَن الدارِسُ الخبير لهؤلاء ؟ أنتُمْ أم الأستاذ وجدى ! لقد سَكَتُّمْ فلم تكتبوا شيئا وأنتم زملاء وأصدقاء ، وأولُو خبرةٍ بالقوم ؟ أيُلامُ الأستاذ وجدى إنْ سكَتَ عن قومٍ لا يَكادُ يعرف عنهم شيئا ؟ ولَا تُلامون وأنتم تَعرفون كلّ شيء ثم تقصّرون ! كنتُ أفهمُ أن يقولَ أحدكم ، كتبتُ مقالاً فى تاريخ فلانٍ رحمه الله ثم حالت المجلة دُون نشره ! هُنا يجبُ أن نسأَل ، وأعرفَ لِمَ حُجِبَ المقال ؟ أمّا أن نلومَ رجلاً محدود الاتصال بالعلماء لأنه لم يكتبْ عنهم ، ولا نلومَ أنفسنا فكثير ...

وأراد الإمام المراغى أن يغيِّر وجهة النقد الصائب ، فقالَ : لقد نشَر فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون مقالاً ممتازاً بالجريدة اليومية عن صاحبِ الأهرام ، وذكرَ فيه أكثرَ ممّا ذكر الأستاذ وجدى ، فلماذَا لا تَعترضون عليه إذن ؟ لقدْ صادفَ مقال الأستاذ أبى العيون ارتياحِى لأنّه ينْحُو منحى مقال الأستاذ وجدى ، فهل لديكم ما تقولون !؟ وانتهى المجلس بالاعتذار .

هذا قليلٌ من كثير أعلمُه عن الرجل الكبير ، وقد تحدثْتُ عنه بَعْد رحيله فى مناسبات كثيرة ، ولا أزال أهش فرحا بالكتابة عنه ، لأنه فى دنيا الخلق الرفيع مثالٌ يحتذى ، ونحن نرى كثيرين يفهمون الأصول الصحيحة للأخلاق الرفيعة ويتحدثُون عنها فى خطبِ رنانّة ، ومقالات دوْريّة ، ولكنهم لا يَلْتَزمون بكثير مما

يتحدثون ، فإذا رأينا بين مَن نعرف مَن يلتَزم بما يقولُ تطبيقاً مهما عادَ عليه قولُ الحق بالمضايقةِ المرهقة لَدى من يحترفون الدسائس والمضايقات ، فإننّا نفرح كل الفرح حين نجد المثل المنشود إنسانًا كريما يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، رحمه الله ...

د . محمد رجب البيومى